منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1624) السنة السابعة - السبت (10) تشرين الاول 2009

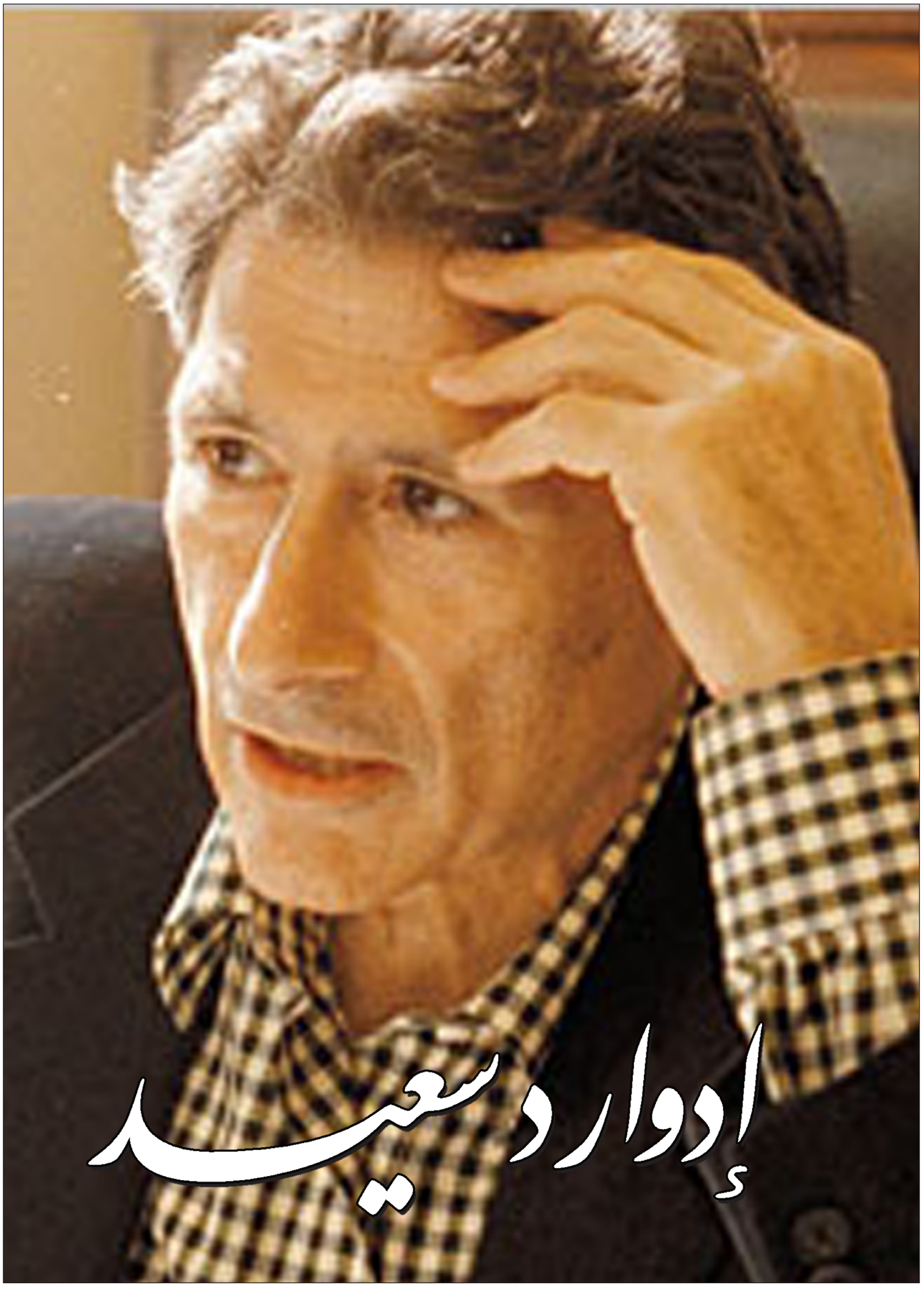

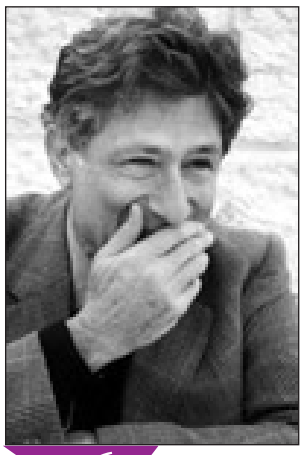

6
ادوارد سعيد مفارقة الهوية

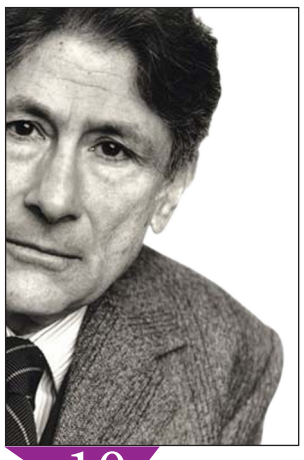

10
ادوارد سعيد والاستشراق

11
فضح سطوة الآخر

ادوارد سعيد والعيش في حياتين

فضاء المنفى.. ومفارقة الهوية

يهدي محمود درويش قصيدته الأخيرة (طباق) "إلى إدوارد سعيد" ويتمثل فيها صوته في حوار يديره الشاعر الذي لا يشترك مع سعيد في الجذور فحسب، بل في حالة النفي التي عاشها بعد خروجه من فلسطين.. وفي مقاطع من هذه القصيدة يشخّص درويش إشكالية وجود سعيد وما أسماه دارسوه (مفارقة الهوية) والانشطار بين مكانين يرتّب ويتطلّب كل منهما وعياً مختلفاً إن لم يكن مضاداً في بعض مفرداته وعناوينه.. لا سيما وأن المكانين يحف بهما تقابل عدائي يسبّب الانشطار.
أدوارد سعيد في القصيدة يجيب في حوار افتراضي مستعاد وسؤال عن (أناه):

حاتم الصكر

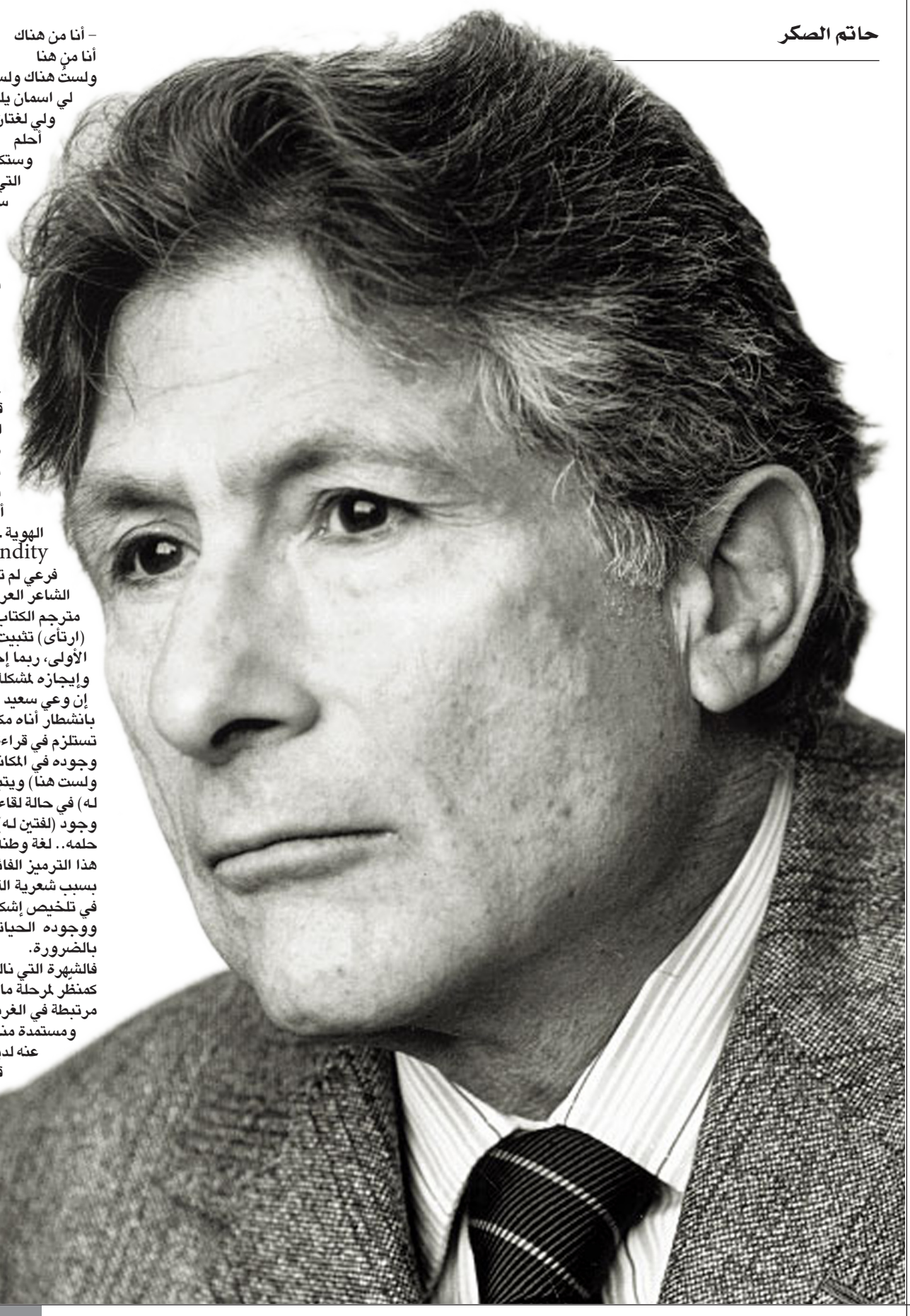

- أنا من هناك
أنا من هنا
ولستُ هناك ولست هنا
لي اسمان يلتقيان ويفترقان
ولي لغتان نسيتُ بأيهما كنتُ أحلم

وستكون هذه الأبيات التي تلامس سطح سعيد وعمقه في آن. أعني جذره ومنفاه. مدخلا لقراءة كتاب عن سعيد صدر عام ١٩٩٩م بعنوان (مفارقة الهويّة) مشفوعاً باسم: ادوارد سعيد، لمؤلفين غربيّين قادمين من الحقل الأكاديمي، ثم أعيد طبعه عام ٢٠٠٠م بعنوان: (إدوارد سعيد)، فقط، وكأن أطروحة (مفارقة الهوية. the pardaox of idendity) كعنوان فرعي لم تعد لازمة، رغم أن الشاعر العراقي سهيل نجم مترجم الكتاب إلى العربية (ارتأى) تثبيت عنوانٍ الطبعة الأولى، ربما إحساسا منه ببلاغته وإيجازه لمشكلة سعيد الفكرية..
إن وعي سعيد كمثقفٍ وناقد بانشطار أناه مكانياً: (هناك وهنا) تستلزم في قراءة درويش نفي وجوده في المكانين معا (لست هناك ولست هنا) ويتبعها وجود (اسمين له) في حالة لقاء وفراق، ويستكملها وجود (لغتين له) يختلطان في حلمه.. لغة وطنه ولغة منفاه..
هذا الترميز الفائق لإشكالية سعيد بسبب شعرية القصيدة، نجح في تلخيص إشكاليته الفكرية، ووجوده الحياتي معاً، ووعيه بالضرورة.
فالشهرة التي نالها ادوارد سعيد كمنظّر لمرحلة ما بعد الكولونيالية مرتبطة في الغرب بـ(مفارقة الهوية) ومستمدة منها، في مسكوت عنه لديهم، يحكي عن قدرته في التأثير على دراسات الاستشراق، وفضحه للخطاب الكامن وراءها، كما جسّده كتابه(الإستشراق ١٩٧٨) حيث كان تمثيل الشرق في تلك الدراسات على انه مجرد انتماء ديني وقومي مغاير (عربي–مسلم).
هنا كانت التفاتة سعيد المهمة، فهو يتحدث عن علاقات ثقافية وسياسية، يريد الاستشراق، لكونه (خطاباً) حسب المفهوم الفوكوي الذي تبنّاه سعيد، أن يلخّصه في(صورة نمطية) تشيع وتترسخ ليسهل من بعد رفضها، وتبرير كراهيتها..
لقد صار النظر إلى الاستشراق كله بعد كتاب سعيد على أنه(مصطلح شامل حول الأسلوب الذي تعامل فيه الثقافات الأخرى وتُصور) طبعاً بعد تسليط قوة الخطاب عليها،أو كيفية عمل السلطة في المعرفة، أي إجراءات معرفة الشرق بالغرب التي(كانت سبيلاً لمد السلطة عليه).. وهكذا أصبح(الشرق)نصاً، و(الغرب) سلطة، والاستشراق (معرفة) تتخذ وسيلة للهيمنة عبر الخطاب الاستشراقي المسلّط على بنية الشرق النصية.
هل كانت شهرة سعيد إذاً من هذا الكشف المعرفي لحقيقة الاستشراق وطرق تمثيله للشرق أو من انشطار هويته ووجوده ولسانه؟– مما يلحّ عليه مؤلفا كتاب– مفارقة الهوية– ويجدان له تجليّات ومظاهر يعدّان منها:صراعاته مع شتاته– إدراكه للمنفى الحتمي الممكن– الربط بين النص و العالم –تناقضات شخصيته المغربنه وعلاقاته بوطنه– صوته السياسي وواقعه المهني– عروبته ومسيحيته– فلسطينيته كجذر وأمريكيّته كواقع– وبآختصار بليغ(العيش في حياتين) كأثر من آثار سؤال أو اسئلة(الهوية الملحّة).
وبعض من ذلك التناقض تحكيه قصيدة درويش:(هنا وهناك –إسمان –لغتان) وتتطور الاشكالية في القصيدة لتصبح (تعددا) وانتماءً متفوقاً(لسؤالٍ الضحية) الذي يظل أكثر جوهرية:
- أنا المتعدد في داخل درويش المتجدَد
لكنني أنتمي لسؤال الضحية
ولكن: أي العالمين سيختار؟ فقصيدة درويش تسائل سعيد:
– منفىً هو العالم الخارجي
ومنفىً هو العالم الداخلي
فمن أنت بينهما ؟
يجيب سعيد :
أنا ما أنا
.. أنا آثنان في واحد
هذا التقابل العدائيً: إما .. وإما، داخل أو خارج، ينمّيه في وعي سعيد النقد الذي قوبل به كمفكر وناقد وأكاديمي . وفي هذا الكتاب آستعراض شامل واستقصاء دقيق لردود منتقدي سعيد الذين لم يكتفوا بقراءته قراءة اسقاطية مشوّهة وغير موضوعية غالباً ، بل مختزلة ومشكّكة في إجراءاته التفكيكيّة لمفاهيم الخطاب والسلطة والمعرفة، كما تعقّبوا

وقائع سيرته التي دوّنها في كتابه السيري (خارج المكان)، وأورد الناقد فخري صالح طرفاً منها ، وردّ عليه في كتابه دفاعاً عن أدوارد سعيد، والحجاج الذي دوّنه فيه حول وثائقية السيرة السعيدية، وتهافت التشكيك بجزئياتها، ودوافعه غير الثقافية.
فسعيد ليس مجرد مدافع عن شرق مذاب في دراسات الاستشراق كما تريد ردود ناقديه أن تصوّره.. ولا سياسي يكيّف المنهج لقضية شعبه.
إنه مفكر مزعج للخطاب العام في الغرب لكونه كاشفاً للعرقية الكامنة التي يكره منتقدوه أن يروها داخلهم، والتي سمح وجود سعيد المنشطر أن يراها في تشكلها الثقافي ويسميّها ويتعقب مظاهرها تحت المسميات المضللة لها حتى في الروايات التي حللها والأعمال الفنية كالموسيقى والأوبرات مثل (عايدة)..
كما ساعده تفكيك المركز الاستعلائي الغربي على إظهار الترميز التمثيلي من طرف الكتاب والسياسيّين للعربي . والشرقي . في شخص عدواني وشرير متخلف، مصاب برهاب من الآخر (الأجنبي) !!أو تجسّم خطر أطروحة سعيد في كشف الرغبة الدفينة لدى الغرب لعودة الكولونيالية بمبررات جديدة، ذات طابع ثقافي . بالمعنى الشامل . هذه المرّة ، بحيث غدت (الثقافة) بدورها (سلطة) لا تقل خطراً عن الاستعمار المباشر أو التقليدي.
وتبع ذلك اتجاه سعيد للاهتمام بما أسماه دارسوه الغربيون (سرد القصة الفلسطينية) برواية تختلف عما استراح له الغربيون وأقروه كرواية رسمية متواطأ على صدقها التاريخي وتأويلاتها ، واتخذوا على أساس ذلك الوهم والتزييف والمغالطات التاريخية والمنطقية ، موقفهم الثابت – المعادي – للمقاومة الفلسطينية من أجل الحرية ودحر الاحتلال.
إنّ (الهوية المفتقدة) – وليس مفارقتها – هي شغل سعيد الشاغل.
وهنا نعود لقصيدة درويش الذي يصطنع هذا الحوار المتخيّل مع سعيد:
– وقلت الهوية ؟
قال : دفاع عن الذات
إنّ الهوية بنت الولادة
لكنها في النهاية إبداع صاحبها
لا وراثة ماض
في هذه الأبيات – واضحة التقريرية والمباشرة – ملامسة لمشكلة معرفية ضاغطة ضمن سيرة هذا المفكر الإشكالي.. الذي يقدم له درويش حلاً (ممكناً) ينفي (الماضي كموروث) لكنه يؤكده إذا كان (من إبداع صاحب الهوية) .ولما كانت الأمور لا تسير بهذا الشكل المبسّط والمثالي، فإن سعيد نفسه يؤكد تلك الهوية حتى وهو يضع قواعد لمفهوم قراءة النص: حيث (القراءة) عنده فعل نقدي وثقافي، تتخذ هيئة (القراءة الطباقية) كما يسمّيها لكي يضيء الأعمال الروائية، ويكشف بواسطتها القارئ المستعمر (بفتح الميم) ما يسميه سعيد " الحضور المحتجب والحاسم للنزعة الامبراطوريّة " في النصوص المنتجة غربياً ، كتعبير ثقافي عن النزعة ذاتها، استناداً إلى إجراءات كشف بنية الموقف والمرجع.
ولعلها مصادفة أن يلخص مؤلفا كتاب (مفارقة الهوية) أزمة سعيد بأنه يعيش فضاءً بين فسحتين أو فرجتين: ماض فلسطيني مستعمر ، وحاضر أمريكي إمبريالي، مؤكدين الطابع التاريخي لمعاناة سعيد والتي أشار أليها درويش..
يقول سعيد، كما ينقل مؤلفا الكتاب:
" إن الهوية . من نحن ؟ من أين جئنا؟ ما نحن؟ ، شيء صعب المنال في المنفى " وكأن سعيد يلخص بذلك صعوبات التحقق الفعلي للهوية، رغم وجودها كقوة داخل الفكر والجسد والثقافة، وتصبح في فضاء المنفى الضيّق مسألة دلالة، أو إشارة تكتسب معناها بالإختلاف عن الإشارات الأخرى.. إشارات الآخر، وذلك سيجعل الفلسطينيين، حسب سعيد، شعب الرسائل والإشارات والتلميحات ، ولأن داخلنا محتلّ . يقول سعيد . فإننا نعبّر عن الأشياء بغموض محيّر ..
لقد جرى انتقاد سعيد في أطروحاته بشكل متعّف وعدائي حتى عند التخفي وراء النقاش المنهجي، كالقول إن إطروحة سعيد لا تاريخية، وسرده لا رابط له، أو أنه لا يقدّم بديلاً للظاهرة التي ينتقدها . في حقل الإستشراق . وأنه يخلط تمثيل الاستشراق للشرق وتشويهه له ،لأنّ بين العملين أو الاجراءين خطاً رقيقاً جداً..
آخرون لمّحوا إلى التهمة الجاهزة : الإرهاب، وسواهم قدموا من حاضنات ماركسية تحدّثوا عن قسوة مقابلة أورثتها الكولونيالية في ضحاياها، وشكّكوا بهامشية المهاجرين وأفكارهم التي تشكّلها مواقعهم في المكان الجديد كمشكلة، تتخذ العرق كقضية لها أولوية، بدلاً عن الصراع الطبقي، وتغيّرات صيغ الانتاج وإيديولوجيا السلطة..
والأكاديميون لهم مبرراتهم المضلّلة هنا أيضا : إن أنتلجنسيا الجامعة لها إشكالاتها: فإما أن تتأصل في الأقليات الإثنية ، أو تضم نفسها إيديولوجياً إلى الأقسام الأكاديمية لتلك الأقليات..
وعلى هذا الأساس ينبني الموقف من فكر سعيد.
وكحلّ للأنا والمنفى والهوية وأسئلتها المفتوحة يقترح درويش حلاً شعرياً آخر يقوله بلسان سعيد، أو يقوله سعيد في الحقيقة عبر قناع حواري بكلمات درويش:
– أنا ما أقول وما سأكون
سأصنع نفسي بنفسي
وأختار منفاي موسوعة لفضاء الهوية .
وما قاله سعيد هو تعبير عن كينونته المنبتة عن جذرها هناك كواقع، والنابتة في المنفى هنا كحالة قائمة.. وبين هذا وذاك عاش سعيد معلّقاً في فضاء الهوية ،منجزا برنامجه الفكري الذي ظل وراءه صوتا في برّية الفهم المشوّه عن عمد، والقراءة المغلوطة عن سابق اصرار

إن الهوية . من نحن ؟ من أين جئنا؟ ما نحن؟ ، شيء صعب المنال في المنفى " وكأن سعيد يلخص بذلك صعوبات التحقق الفعلي للهوية، رغم وجودها كقوة داخل الفكر والجسد والثقافة

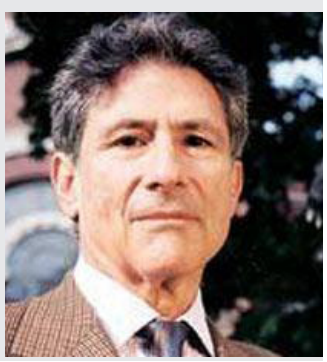

هل نبكي ادورد سعيد ؟ نقيم له مجالس العزاء ؟ ننشر مراثينا في وسائط الإعلام؟ نعيد طباعة اطروحاته الكبرى من نحو كتابه (الأستشراق) ؟ نعنى بعياله مثلا ؟ نوصي بصناعة تماثيل له في وطنه فلسطين وبعض الدول العربية والجامعات؟ اعلم مستوى تفكيرك الرفيع ولهذا فانا اتوقع ان ترفضي اسئلتي !! فهي زوبعة في فنجان حزني المجنون عليه !! نعم نعم فالبكاء هو شهادة وفاة للمبكي عليه !

ادوارد سعيد خارج المكان لانه المكان

عبد الاله الصائغ

وكيف يموت ادوارد بالله عليك وقد اختط لنا مع نظرائه : علي الوردي ومالك بن نبي وعبدالله العروي وكامل مصطفى الشيبي وقيس النوري .... سبيلا لا حبا نحو جلجلة حوار الحضارات !! بعيدا عن القعقعة القومية والحشرجة الطائفية !! لقد امضى ادوارد سعيد السنوات الأخيرة وهو ينازع السرطان وحيدا إلا من حبنا نحن الذين انعم الله علينا فوهبنا سانحة معاصرة ادوارد سعيد وعلي الوردي وكامل الشيبي وقيس النوري وعبدالله العروي ومصطفى جواد وعبد الحق فاضل وابراهيم حرج وعلي الطاهر وعماد عبد السلام وصلاح خالص ومحمد مهدي المخزومي وجليل كمال الدين ومحمد حسين الأعرجي ! سانحة ان تولد في زمن العباقرة لا تقدر بثمن !! ولسوف اشرِّح اطروحات ادوارد سعيد في قابل عمري فهي والله بلسم ناجع لنا نحن العراقيين للخروج من مازق الناعور أي الدورانِ حولِ قطب الذات الذي ابتلي به بعضُ مؤثِّرٌ من كتابنا وذوي القرار بيننا ! الغائب الحاضر ادوارد سعيد دعا الى الحوار الهاديء بين الخطوط المتوازية والمتقاطعة !! وكان جل همه منصبا على حوار الخطوط المتوازية بسباحة ضد المنطق الرياضي بأن الخطين المتوازيين لن يلتقيا مهما امتدا !! ولأنهما لن يلتقيا فإن ادوارد سعيد ابتكر صلة اللا صلة !!وقواسم اللا قواسم فدعا الى حوار هاديء هادف بين الخطوط المتوازية على سبيل تبادل الخبرات والأشتراك في ملكية المكان (الكرة الأرضية) اما الخطوط المتقاطعة فقد وضع لها دستورا ارسطيا قائما على ان الحقيقة ليست متحققة على ارض الواقع !! مثلها مثل الغول او طير السعد او مصباح علاء الدين !! واذا فرضنا تحققها جدلا فذلك يعني انها مشاعة مثل الهواء ولا يحق لأي منا الإستئثار بها وحرمان الآخر منها !! ولم يفت هذا الأدوارد السعيد التوكيد على ان الحقيقة الوحيدة المتحققة هي الذات العليا (الله) والله ليس حكرا لأحد حتى لو كان حاكما او رجل دين !! الله للجميع والجميع لله ! ولقد نال ادوارد بسبب اطروحاته التنويرية عنتا من الحكام العرب والمعسكر الرجعي المتزمت الذي يمتد على الشارع العربي و تلبث طويلا عند مفردات الحياة للعرب وشركائهم في الوطن من بربر وكورد وكلدان ووسائل احترمهم قبل ان نطلب من اسرائيل ان تحترمنا ..... الخ

ولعل الطعنات الأشد تلقاها من قوى فلسطينية متحجرة اتهمته بسبب جهلها وضيق افقها وقلة ادبها بعلاقات مشبوهة ظلامية مع المخابرات الأمريكية والموساد !! وبلغ الصلف بالتيارات القومية والدينية المتشددة والطائفية العمياء والغوغائية المسلفنة الى ارسال التهديدات الى عقر داره وهو ينازع السرطان الرائع الذي انقذه من ظلم شعب اهدر علمه وعمره وثراءه بل ودمه من اجله فلم يجد الا اقل القليل ممن يعرف فضله ويضغط على ورقته !! والمفاجأة ان الناطقين بالفرنسية والأسبانية والأنجليزية بدرجة اقل !! اولئك الذين اقلق قناعاتهم وخض فيهم شجرة الإنغلاق على الحضارات الأخرى !! هؤلاء حق لهم ان يحاربوه ويسحبوا منه جنسيته وجواز سفره الدبلوماسي !! ويتصدوا الى رزقه !!هؤلاء الغرباء يدرسون اطروحاته بتفهم كبير في الحوار الحضاري بجامعاتهم ويناقشونها غالبا في اجهزة الإعلام ويتبنون طبع كتبه على نفقة الشركات الناشرة

العملاقة ! بل وقد نهد البروفسور ديفد الفنسون لنشر اعلانات في الصحف والتلفاز والإنترنت من اجل حملة اممية تسعى الى جمع التراث الفكرِي لأدوارد سعيد المبثوث في صحف بعضُها محلي محدود التوزيع واًلآخر كتب بلغات غير شائعة !! فمن منا اقترب من ادوارد سعيد ؟ من منا تتلمذ عليه ولو بالقراءة ؟ ونحن الذين نكتب هنا وهناك ونشعل الحرائق والمعارك بغطرسة لا مثيل لها حتى في موروثنا الأبيض و الأسود والرمادي !! ان الحاجة قائمة لمد خراطيم رحيمة الى عقول بعضنا كي نضخ فيها بشارات ادوارد سعيد ولا عيب ان نتلقى العلم كبارا ولكن العيب كل العيب ان لا ندري ولا ندري اننا لا ندري !! واكرر القول انني سأغتنم اي سانحة لكي اضع تراث فقيدنا العظيم بين اعين زملائي من الكتاب !! بل واضعها بين عيني انا قبلهم !! فأنا اكثر الزملاء حاجة لحضارة ادوارد سعيد فهو اب لكل ظامئ لماء المعرفة فليساعدني الرب آمين .

ولد ادوارد سعيد شتاء ١٩٣٥ في مدينة القدس ودرس في فلسطين ومصر ثم واصل دراسته في الغرب حتى نال في وقت مبكر درجة بروفسور شرف في اللغة الإنجليزية والأدب المقارَن في جامعة كولومبيا في نيويورك !! اشهر كتبه سبعة عشر كتابا نذكر منها : الإستشراق وصور المثقف والثقافة الإمبريالية !! ولم يتناول في دراساته الرائدة الحق العربي والقضية الفلسطينية بالطرق الشرنوبية الخائبة التي اعتاد العقل الشرق أوسطي سلوكها !! بل سلك طريقا حاذقا وهو مخاطبة الآخر بآليات لغته وأسلوبه وقناعاته !! واحترام خصوصياته ومنها قناعاته المضادة وكان رحمه الله صاحب ميكانزم حفر البئر بدنبوس ليدلل علة ان طريق الحوار ليس سهلا او بسيطا فهو على نحو من الأنحاء اشق على النفس من طريق الحرب التي لا تحتاج الى كبير فهم او صبر او شرف !! ومات هذا الظاهرة العلمية الحضارية يوم الخميس ٢٥ سبتمبر أيلول ٢٠٠٣ وفي صدور اشقائنا المسيحيين غصة مؤداها : لماذا خدم ادوارد سعيد الإسلام واليهودية والصابئية وحتى الكونفوشيوسية اكثر مما خدم المسيحية ؟ ولماذا انفق ربيع عمره واجتهاده للدفاع عن الإسلام حتى زعم البسطاء انه أسلم! وهم يجهلون همه الأممي الباذخ ! يجهلون ان ادوارد سعيد كالهواء لا وطن له بيد انه هبة لكل الأوطان !

(.. تلقيت منذ سنوات عدة تشخيصا طبيا بدا مبرما فشعرت بأهمية ان اخلف سيرة ذاتية عن حياتي في العالم العربي حيث ولدت وامضيت سنواتي التكوينية كما في الولايات المتحدة حيث ارتدت المدرسة والكلية والجامعة العديد من الأمكنة والاشخاص التي استذكرها هنا لم تعد موجودة على الرغم من انني اندهش باستمرار لا كتشافي الى اي مدى استبطنها وغالبا بأدق تفاصيلها بل بتشخيصاتها المروعة ! لعبت ذاكرتي دورا مهما في تمكيني من المقاومة خلال فترات المرض والعلاج والقلق الموهنة ففي كل يوم تقريبا وايضا فيما انا اؤلف نصوصا اخرى كانت مواعيدي مع هذه المخطوطة تمدني بتماسك وانضباط ممتعين ومتطلبين معا ومع ان كتاباتي الاخرى وتدريسي ابعدتني كثيرا عن العوالم والتجارب المختلفة التي ينطوي عليها هذا العمل فالأكيد ان الذاكرة تشتغل بطريقة افضل وبحرية اكبر عندما لا تفرض عليها الأساليب او النشاطات المعدة اصلا اتشغيلها فلا شك في ان كتاباتي السياسية عن الوضع الفلسطيني ودراساتي عن العلاقة بين السياسة والجماليات وخصوصا الأوبرا والنثر المتخيل وافتتاني بموضوع كتاب اكتبه عن الاسلوب المتاخر بدءا ببتهوفن وادورنو قد غذت هذه المذكرات بروافد خفية)(ولد ابي في القدس عام ١٨٩٥ وترجح امي ان ذلك كان في العام ١٨٩٣ ولم يبح لي من دزينة الأشياء عن ماضيه وكان قد جاوز الأربعين عند ولادتي !! وابي يكره القدس وعلى الرغم من انني ولدت فيها وامضينا فيها فترات طوال من الوقت فقد كان كل ما يقوله عنها انها تذكره بالموت ! عمل والده لفترة ترجمانا ولأنه كان يجيد اللغة الالمانية فقد رافق القيصر وليام خلال زيارته لفلسطين) . (المؤكد ان امي كانت الرفيق الأقرب الي والأكثر حميمية خلال ربع قرن من حياتي واني اشعر اني مطبوع بالعديد من وجهات نظرها وعاداتها التي لا تزال تسيِّر حياتي من قلق يشل ارادتها ازاء تعدد احتمالات التصرف الى ارق مزمن معظمه فرضته على نفسها فرضا وعدم استقرار عميق الجذور يضارعه مخزون لا ينضب من الحيوية الذهنية والجسدية واهتمام عميق بالموسيقى واللغة وبجماليات المظهر والأسلوب والشكل وربما من ميل متضخم الى الحياة الاجتماعية بتياراتها وملذاتها وما تحمله من طاقة على السعادة والحزن ونزوع لا يرتوي ومتعدد الأساليب الى حد لا يصدق الى تنمية الوحدة بما هي شكل من اشكال الحرية والعذاب في ان معا ولو ان امي كانت مجرد ملجأ او مأوى آمن افيء اليه بين حين واخر هربا من مرور الايام لما استطعت التكهن بالنتائج إلا انها كانت تحمل اعمق الإلتباسات التي عرفتها واكثرها اشكالا تجاه العالم وتجاهي انا شخصيا فعلى الرغم من الألفة بيننا كانت تطالبني بالحب والتفاني وتعيدهما الي اضعافا مضاعفة على انها قد تصد مشاعربر فجأة باعثة رعبا ميتافيزيقيا في اوصالي لا ازال اتمثله بانزعاج شديد)

وبعد ياسيدي ادوارد انت اليوم مودع في ثلاجة المستشفى بانتظار حضور المشيعين وسيحرص الأمراء النفطيون على حضور التشييع لكي يقول الناس عنهم انهم يعرفون ادوارد ومن باب اولى انهم يقرأون له ! ولسوف يسير في جنازتك النجوم من العلماء والأدباء والفنانين والسياسيين والمفكرين !! ونفسي ان اعرف مضمون الخطاب الذي وجهته الى الرئيس رغم انف الشعب ياسر عرفات !! هل وضعت المرآة بين عينيه ليرى انه باع القدس وبغداد والقاهرة من اجل بلدية غزة - اريحا ! وهل شعرت وانت تغمض عينيك ان المنظمات الإرهابية في فلسطين كانت وما زالت تعمل ضمن خطط الطواريء للحكام العرب وبخاصة اللئيم صدام؟ لن اثقل عليك فقد اراحك الموت من زمن يسير فيه القاتل خلف جنازة القتيل وفي المساء يسطو على مخلفاته !! نم يا ادوارد واترك لنا عناء الحياة بعدك .

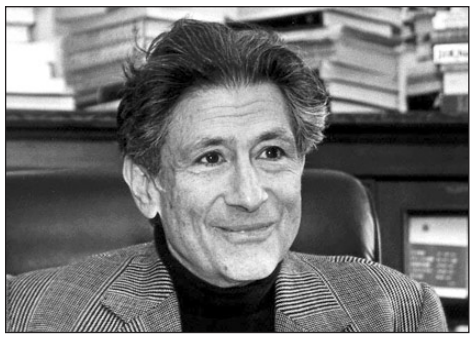

(أُقيمت في بلدة القنيطرة المغربية بعد وفاة الراحل إدوارد سعيد أيام ثقافية عنوانها " فلسطين رمز يتجدد". ودعاني المنظّمون إلى التحدّث عن إدوارد سعيد ، ظناً منهم أنني كنتُ أعرفه لكوني مشرقياً) لم أكن أعرف إدوارد سعيد شخصياً. ولكنني كنتُ أسمع صوته المتميّز. كان صوته يصلني هادراً ثائراً بنبراته القوية، وإيقاعه المثابر، ونغمته الحزينة؛ فينفذ إلى قلبي وعقلي بلا تأشيرة دخول،

شجاعة فكر بلا حدود عن ادوارد سعيد

الدكتور علي القاسمي

ويخلّف في نفسي الأسى وفي روحي الأمل. كان صوتُ إدوارد سعيد صوتَ مَن لا صوت لهم. فقد أعار إدوارد سعيد صوته للبائسين والمحرومين والمظلومين والمضطهدين في كل مكان. وهبَ إدوارد سعيد صوته للمخنوقة أصواتهم من النساء والشيوخ والأطفال، والمشردين واللاجئين في الخيام.

لم أكن أعرف إدوارد سعيد، ولكنني كنتُ أقرأ بعض كلماته الرائعة التي بثها باقتدار وسخاء في عشرين كتاباً على مدى ما يقرب من أربعة عقود من الزمن، من كتاب (جوزيف كونراد وقصة السيرة الذاتية) الذي صدر عام ١٩٦٦ حتى كتاب (تأملات حول المنفى) الذي نُشر عام ٢٠٠٠. وكلا الكتابين . أول كتبه وآخر كتبه . يتناول مشاعر الاغتراب والنفي والتمزق الداخلي. فجوزيف كونراد كان بحاراً بولونيا هاجر إلى فرنسا ثم استقر في انكلترا وكتب رواياته باللغة الإنكليزية، لا بلغته الأم، تماما مثل إدوارد سعيد. وكلا الرجلين عانى مشاعر الغربة المزدوجة والصراع بين لغتين: واحدة عاش فيها طفولته وفتوته وأخرى عبّر فيها عن تجارب تلك الحياة. وهذا ما دعاه أدورد سعيد بـ " إعادة بناء عالم بمصطلحات عالم آخر".

كانتْ كلماته تجمع بين رصانة الباحث الأكاديمي، ورقة الشاعر المرهف الأحاسيس في آن واحد. كانت كلماته تخاطب العقل بالمنطق، وتداعب العاطفة والوجدان بالأخوة الإنسانية، لأن إدوارد سعيد كان طيب القلب جداً وصلب الإرادة جداً، كما قال عنه جمال الغيطاني. لم تكن كلماته تضيء الطريق في هذا العصر المظلم فحسب وإنما كانت تشعل النيران أيضاً. كانت كلماته تصوّر أيمانه بقيم الحق والعدل والجمال، وتمسُّكه بحقوق الإنسان أينما كان. فالكتابة، في نظر إدوارد سعيد، ليست مهنة وإنما مشروع، إذ يصب الكاتبُ نفسَه في عدد من الأعمال، وهي بدورها تعرّفنا به وتحدد هويته.

لم أكن أعرف إدوارد سعيد. ولكنني كنتُ أعجب بخصلة الوفاء في شخصيته. غادر إدوارد سعيد فلسطين وهو فتى وعاش في أمريكا بقية العمر، أي أنه عاش (خارج المكان)، ولكن فلسطين لم تغادر وجدانه أبداً وإنما بقيت داخل سويداء القلب. فقد ظل دائما يخبّئ بين الجوانح أجراسَ كنائس القدس، ومنائرَ مساجدها، وزغاريدَ نسائها. وبقي يحمل مأساة الشعب الفلسطيني ومعاناته بين الضلوع وفي بؤبؤ العين، وامتزجت دماء الشهداء الفلسطينيين بمداد قلمه. واستطاع إدوارد سعيد بنضاله الفكري أن " يضع فلسطين في قلب العالم ويضع العالم في قلب فلسطين، "، كما قال زميله الشاعر الفلسطيني محمود درويش.

كان من بواكير أعمال إدوارد سعيد كتاب (القضية الفلسطينية) الذي صدر عام ١٩٧٩ ، وكانت آخر محاضرة له في جامعة أكسفورد عن فلسطين كذلك. في كتابه المتميز في النقد الأدبي الموسوم بـ (البدايات) والصادر عام ١٩٧٥، يستعرض إدوارد سعيد روائع الحداثة الأدبية وآخر الأعمال النظرية، ويجادل بأن (البداية) تختلف عن (الأصل) وأفضل منه، لأن البداية يمكن أن يختارها المرء، في حين أنه لا خيار له في أصله، وكل ما يقدر عليه هو أن يعترف بأصله. وفي ضوء هذا التمييز الفذ أستطيع أن أقول إن إدوارد سعيد لم يكن وفياً لفلسطين لأن أصله منها، ولكنه كان وفياً لها لأنه أختار أن يكون فلسطينياً. لقد مارس إدوارد سعيد حريته في اختيار هويته. وما الحرية إلا اختيار وإرادة.

لم أكن أعرف أدوراد سعيد. ولكنني كنتُ أتهيب شجاعته. فقد رفع إدوارد سعيد راية مقارعة الصهيونية في عُقْر دارها، في الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها، حتى تعاطف معه أحرار المثقفين ونوابغ المفكرين. كانت شجاعته لا حدود لها. ذات مرة، رتبت إحدى محطات التلفزة الأمريكية مناظرة بينه وبين نتنياهو سفير إسرائيل في واشنطن آنذاك، فاشترط نتنياهو أن لا يجلس في غرفة واحدة مع إدوارد سعيد، بل يجلس في بناية مختلفة. وعندما قال المذيع في تقديمه: " إن نتنياهو لا يريد أن يجتمع بإدوارد سعيد، وإدوارد سعيد لا يريد.." قاطعه إدوارد سعيد قائلا: " لا، أنا مستعد لمناظرته وجهاً لوجه." كيف يخشى إدوارد سعيد ذلك القزم الذنب، وهو الذي لم يخشَ عمالقة الاستعمار ورؤوسهم فهاجمهم بكتابين من كتبه: (الثقافة والامبريالية) و (القومية، والاستعمار، والأدب)؟ كيف يهاب أدوار سعيد شخصاً مثل نتنياهو، وهو صاحب كتاب (القلم والسيف) الصادر عام ١٩٩٤.

لم أكن أعرف إدوارد سعيد. ولكنني كنتُ منبهراً بروعة تسامحه ورحابة أفقه الذي يتسع للإنسانية أجمع. كان إدوارد سعيد ينتمي إلى أقلية دينية بروتستانتية داخل أقلية أرثودوكسية داخل أغلبية مسلمة من الشعب الفلسطيني. ولكن انتماءه إلى أقلية دينية في فلسطين لم يمنعه من أن ينغمس في ثقافة الأكثرية، ويتفهّمها، ويتمثّلها، ويدافع عنا ببسالة. وهكذا نجده يدافع عن الإسلام في اثنين من روائع كتبه (الاستشراق) عام ١٩٧٨، و (تغطية الإسلام) عام ١٩٨١. في الكتاب الأول، الذي يعدّه بعضهم أروع مؤلفاته، أظهر زيف العالم الذي " ابتدعه " المستشرقون وجلا حقيقة الإسلام التي طمسوها. وفي عنوان الكتاب الثاني تورية ذكية، فهو يشير إلى أن المستشرقين والباحثين الغربيين الذين يفترض فيهم أن يقوموا بتغطية أخبار الإسلام والتعريف بها، يعملون في الواقع على تغطيته وإخفاء حقيقته الرائعة. وذات يوم، أجرى الروائي البريطاني سيئ الصيت سلمان رشدي المتخلي عن هويته الهندية وعقيدته الإسلامية، حواراً صحفياً مع إدوارد سعيد بعد صدور كتابه (بعد المساء الأخير) ١٩٨٦ الذي حدّد فيه خصائص الهوية الفلسطينية الواحدة على الرغم من أن الفلسطينيين كانوا يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلي أو مشتتين في المنافي، فقال رشدي : " أرغب في أن أطرح عليك بعض الأسئلة الشخصية. أنتَ تقول بأن الإنسان حين يحدد هويته كفلسطيني، فإن ذلك يعني أنه قادم من الثقافة الإسلامية. مع ذلك، أنتَ لستَ مسلماً، فهل هذا يطرح مشكلاً؟ وهل هناك خلافات بشأن هذه المسألة؟" كان جواب إدوارد سعيد ببساطة: " لا مشكل لدي وليس لي أية تجربة في خلافات من هذا النوع." كان إدوارد سعيد صادقاً فقد كان " مسيحياً ديناً مسلماً وطناً " على حد وصف الزعيم المصري مكرم عبيد لنفسه.

لم أكن أعرف إدوارد سعيد. ولكنني كنتُ مفتوناً بحدة ذكائه وسرعة بديهته. كان يستطيع أن ينتقل بالتجارب الفردية إلى مدار الحقائق الشمولية، ويستخلص من القضايا الوطنية معانٍ إنسانية ذات طبيعة عالمية، وينتقلُ بسهولة من غموض التجريد بعيد المنال إلى وضوح التشخيص المألوف. كان إدوارد سعيد يزور فلسطين المحتلة في الثمانينات بصفته الأمريكية، فمرّ بمجموعة من الجنود الإسرائيليين يطردون بعض الفلاحين الفلسطينين من أراضيهم. فسأل إدوارد سعيد الضابط الإسرائيلي لماذا؟ أجاب الضابط: " إن هذه أرض إسرائيل ولا يحق لهم البقاء فيها". فقال له إدوارد سعيد: " هكذا كان يقول الألمان الذين طردوا اليهود من منازلهم في ألمانيا ووضعوهم في المعتقلات." وشاهدته ذات مرة في برنامج (كلام قاس) في فضائية الـ بي بي سي البريطانية. فقال له مقدم البرنامج المعروف بشدة دهائه وسلاطة لسانه: " ألا تتفق معي أن الفلسطينيين يستخدمون موت أطفال الانتفاضة في الدعاية والعرض على التلفزيون؟" أجابه إدوارد سعيد قائلا: " أنا لا أفهم ما تعني. هل تقصد أن أولئك الفتيان يموتون من أجل أن يلتقط لهم مصورو التلفزيون صورة أو اثنتين؟"

لم أكن أعرف إدوارد سعيد، ولكن ما أعرفه حق المعرفة هو أن إدوارد سعيد كان مثقفاً لا مثيل له ولا بديل. كان أكاديمياً مرموقاً ، مناضلاً من أجل شرف الكلمة، وملتزماً برسالة المثقف ذي الضمير الإنساني الحي. كان يقاوم بشاعة الظلم وظلاميته بسلاح العقل الجبار، ومصباح الكلمة الفاعلة، ووميضات الرأي الصائب، وحسام الشجاعة الأدبية والإقدام الفكري.

لم أكن أعرف إدوارد سعيد، ولكن ما أعرفه حق المعرفة هو أننا مهما تحدثنا عن إدوارد سعيد، فإننا لا نعطيه حقه من العزاء والوفاء، لأنه ظاهرة فريدة في تاريخ أمتنا الثقافي. وسنبقى نتساءل حائرين: كيف نكوّن جيلاً جديداً من المثقفين لهم بعض ما لإدوارد سعيد من حصافة الرأي، وفصاحة اللسان، والتفاني في حب الأمة والوطن والإنسانية جمعاء، ولهم بعض ما لأدورد سعيد من رقة القلب وصلابة الإرادة.

لم أكن أعرف إدوارد سعيد، ولكن ما أعرفه حق المعرفة هو أن إدوارد سعيد جاء كالحلم، وكالحلم مضى؛ قاوم الموت بإباء وكرامة سنين طوال، ثم مات منتصباً مرفوع الجبين، كما تموت النخلة واقفة محملة بالثمار، وعلمنا كيف ينبغي أن يعيش المرء بكرامة ويموت بكرامة. لقد مات إدوارد سعيد وشعبه الفلسطيني، ووطنه العربي، وجميع المستضعفين في الأرض أشد ما يكونون حاجة إليه وهم يتعرضون لغطرسة القوة وشراسة الهجمة الإمبريالية.

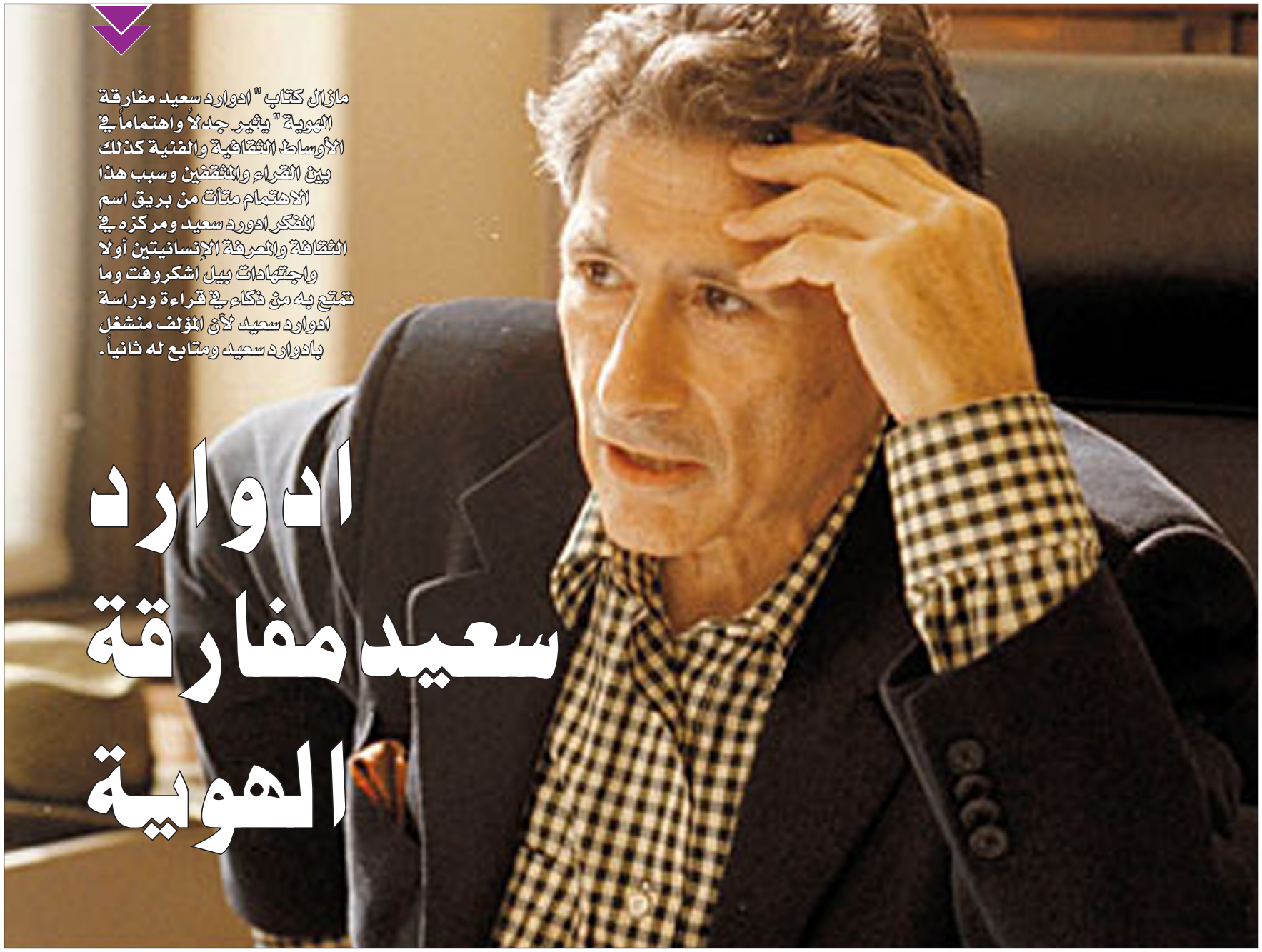

ادوارد سعيد مفارقة الهوية

مازال كتاب " ادوارد سعيد مفارقة الهوية " يثير جدلاً واهتماماً في الأوساط الثقافية والفنية كذلك بين القراء والمثقفين وسبب هذا الاهتمام متأت من بريق اسم المفكر ادورد سعيد ومركزه في الثقافة والمعرفة الإنسانيتين أولا واجتهادات بيل اشكروفت وما تمتع به من ذكاء في قراءة ودراسة ادوارد سعيد لأن المؤلف منشغل بادوارد سعيد ومتابع له ثانياً.

ناجح المعموري

وما ساهم أيضاً بتميز هذا الكتاب هو خبرة الشاعر سهيل نجم في مجال الترجمة وانحيازه الثقافي والمعرفي لكل ما هو جديد بالإضافة الى اهتمامات المراجع د. حيدر سعيد ودقته في توصيفات المصطلح وتحديد مفاهيمه الإجرائية واتساع خبرته وعنايته بالحداثة ومستجدات المعرفة الإنسانية.

وفعلاً، أثار كتاب بيل اشكروفت اهتمامي بادوارد سعيد وحفزه أكثر، لأن المؤلف قد تمكن من تقديم كتاب آخر له صلة غير مباشرة بادوارد سعيد ولكنه متجاور معه وهو .سعيد .الذي ساهم ببلورة ما يسمى بـ "ما بعد الكولونيالية" وترجم الى العربية بطبعتين.

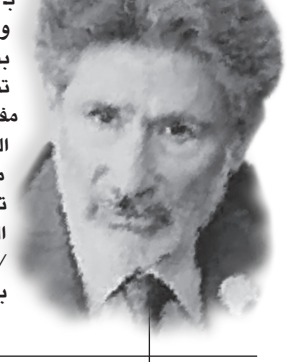

تضمن كتاب "ادوارد سعيد مفارقة الهوية" عدداً من الفصول القصيرة، لكنها مفعلة للمتلقي ومثيرة له تماماً ومنها الدنيوية / النص.. والدنيوية / الناقد / الإستشراق، والثقافة بوصفها امبريالية / وفلسطين، الفقدان والتفويض.

إن "الدنيوية / النص" يقدم كشفاً عن انشغالات ادوارد سعيد الثقافية بعد نشر كتابه المعروف الاستشراق، حيث اهتم سعيد بالمثقف ومجالاته الاجتماعية / السياسية / الثقافية لأنه .سعيد .وضع المثقف في مكانة متعالية وأكثر بروزاً وفاعلية وهو يعتقد بأن للمثقف مركزاً حيوياً من خلال دوره الثقافي / النقدي وكان لكتابه "العالم والنص والناقد" فضل تكريس شخصية سعيد، على الرغم من الأهمية البالغة التي تميز بها كتابه الإستشراق لأن "العالم والنص والناقد" يقدم آلية قرائية لقراءة سعيد ودعم المتلقي للدخول الى أعماله العديدة.

كما أن كتابه النقدي يمثل عتبة جديدة بالنسبة لادوارد سعيد، حيث مازال يمثل "المفتاح لأهميته للنظرية الثقافية المعاصرة".

ولا يمكن لأية قراءة للمنجز الثقافي الخاص بسعيد أن يتجاهل دوره البارز في تأسيس نظرية الخطاب الكولونيالي الذي تم التعامل معه باعتباره شكلاً من أشكال التعبير النظري. وأشار اشكروفت الى خطأ التعامل مع الخطاب الكولونيالي بوصفه مرادفاً لـ " ما بعد الكولنيالية ". ولا تستطيع القراءة، أية قراءة، تجاهل انشغال سعيد بنظام الخطاب وهيمنة سلطة القوة الفوكوية في كل اهتمامات سعيد الثقافية والفكرية وكان لذلك تأثير واضح ومتجاور أيضاً مع تأثيرات المفكر فيكو الذي حذر من أن " التاريخ البشري يصنعه البشر " ولكن اهتمامات سعيد بهذا المفكر الإيطالي ١٦٦٨- ١٧٤٤ جعلته عرضة لانتقادات معروفة بسبب توظيفاته لنظرية فوكو بشكل مبتور.

كما انشغل كثيراً بغرامشي / وفرانز فانون وكان لهما تأثير واضح أفصح عنه سعيد. لكننا لابد من الإشارة الى العلاقة الفكرية الثنائية بين سعيد / وفوكو الذي مارس عبر نظام الخطاب وسلطة المعرفة تأثيراً كبيرا على ادوارد سعيد واتضح ذلك في الأقل في كتابيه / الاستشراق / والثقافة والإمبريالية. ولكن سعيد قد أعاد للعلاقة تلك موازنتها ونبه الى ذلك المفكر إعجاز أحمد في كتابه ما بعد الإستشراق كما نبه الى تراجعات سعيد المعروفة وعلاقته مع نيتشة وخصوصا نظام التمثيلات الذي انشغل به سعيد كثيراً في الإستشراق والثقافة والإمبريالية ووجد بان كل تمثيلات الغرب عن الشرق هي سيئة. وقد تراجع قليلاً عن هذا الرأي النيتشوي ولم يشدد على ما كان منشغلاً به من أن التمثيلات كلها تؤدي الى سوء تمثيل كما أوضح سعيد لاحقا .وهذا ما قاله المفكر أعجاز أحمد .عن مكان خلخلة الخطاب الكولونيالي من الخارج، وهو بذلك يتراجع قليلاً ولكن تراجعه مهم وملفت للانتباه وينطوي على فكفكة المفهوم الماركسي المرتبط بدور الاقتصاد في تفعيل الوعي وتحريك الطاقة الكامنة لدى المواطن.

وقدم بيل اشكروفت تركيزاً، لا بل اختصاراً لمفهوم الخطاب ونظرية الخطاب الكولونيالي من البيانات بواسطته ومن داخله أن يعرف العالم. إن فكرة فوكو عن الخطاب هي مساحة من المعرفة الاجتماعية محددة عن نحو شديد من دون أن يشير الى "الكلام" في معناه التقليدي، فبالنسبة اليه العالم ليس "موجوداً" ببساطة للتحدث عنه، بل بالأحرى أنه خطاب يمكن للعالم أن يوجد بواسطته. وفي مثل هذا الخطاب يتوصل المتكلمون والمستمعون، الكتاب والقراء، الى فهم أنفسهم وعلاقاتهم بعضهم مع بعض وموقعهم في العالم. أنه تلك العقدة من العلاقات والممارسات التي تنشئ الوجود الاجتماعي والنتاج الاجتماعي والتي تقرر كيف تتحدد شروط التجارب والهويات / ص٢٥.

أما " دنيوية الناقد " فقد اقترح ادوارد سعيد نوعا من العلاقة بين المثقف ودنيويته، ولا بد له من أن يكون أكثر ارتباطاً بالواقع وما يجري فيه ولما يفضي نحو تحولات وتغييرات جوهرية، ولذا أقلقت سعيد وظيفة الناقد، لا بل حتى المثقف منذ لحظة صدور كتابه العالم والنص والناقد الى "صورة " المثقف،و قال اشكروفت أن قدرة المثقف في ان يقول أي شيء ينتمي الى مجتمعه أو مجتمعها لا يمكن أن تغنيه عن مفهوم الدنيوية، إذ دون الدنيوية لن يكون المثقف دنيا أو عالماً يتكلم منه واليه، أن مفارقة موقع سعيد في ذلك العالم هو مصدر المفارقة المهم الذي يميز مسيرته، ولكن ليس ثمة تساؤل حول أن العالم، وارتباطه بالنص والناقد، هو شيء حاسم في إدراكه قيمة عمل المثقف. إن رؤيته لدور الناقد هي هجوم جذري على التخصص والبرج العاجي الزاحف الذي راح يميز النقد الأكاديمي، والذي يزيله مرة بعد مرة من الوقائع السياسية للمجتمع المعاصر / ص٤٣. وانطوت آراء سعيد في الدنيوية على إعلان واضح للانشغال بموجهات النص واحترام عناصره التاريخية وما ينتج عنها، لأنه أدرك في مرحلة السبعينيات بأن النصية هي التي هيمنت في النص والنظرية الأدبية وتم عزل للتاريخ الذي ظل كامناً في الخارج وغير مثير لاهتمام القراءات النصية، المكتفية بالعناصر الفنية الداخلية للنص مع تمجيد للبنيوية، وكان من ثمار التضاد الثقافي بروز التاريخانية وتبدّياتها الواضحة عبر الاهتمام بالتاريخ بوصفه نصاً أدبياً كما قال هايدن وايت. وأشار سعيد الى ذلك بلغة أخرى، لكنها تنطوي على موقف فيه انحياز واضح لدنيوية الناقد وكذلك النص " وكما يحدث للأكاديمية الأمريكية اليوم، إذ تقوم النظرية الأدبية بعزل النصية بكل أجزائها عن الظروف والأحداث وكل ما هو ملموس يجعلها ممكنة وواضحة على أساس أنها جهد إنساني / ص٤٥.

وظل ادوارد سعيد أكثر عناية بدنيوية النص مثلما هو معني بدنيوية الناقد الذي اعتبره جزءاً مهما وفاعلاً في تحقيق منعطفات مهمة في الحياة، لأن المثقف عبر عملية المعارضة وروحه النقدية بإمكان تصحيح كثير من المسارات ويوضح اشكالات جوهرية في الحياة / والثقافة ويساهم بتأسيسات جوهرية، تدخل لاحقاً باعتبارها عوامل مساعدة للتغيير والإنعطاف بالحياة نحو مجالات كبرى، مغايرة، ومختلفة.

واهتم الاستشراق الذي وضعه سعيد وأثار انشغالات كبرى في العالم فانه حسب رأي سعيد: معني بوصف النظم المختلفة والمؤسسات وعمليات التحقيق والأساليب الفكرية التي بواسطتها جاء الأوربيون لـ "معرفة الشرق" عبر

ادوارد سعيد في ذكرى بقائه

شاكر فريد حسن

مرت ست سنوات على رحيل المفكر والأكاديمي والمثقف الفلسطيني، المعطاء والفذ والمتوهج فكرا وهاجسا فلسطينيا، ادوارد سعيد، الذي ترجل عن صهوة الحياة وهو في قمة ابداعه وتوهجه وعنفوانه، تاركا وراءه ارثا فكريا حضاريا سيبقى منارة ثقافية للأجيال الفلسطينية والعربية القادمة.

يعتبر الراحل د. ادوارد سعيد من كبار المثقفين والأكاديميين المعاصرين، ومن أبرز المدافعين والمقاتلين عن حرية الفكر والمعتقد والابداع، ومن المحاربين ضد كل أشكال وألوان الفساد والقهر والاستبداد والاضطهاد الانساني والبشري.

امن ادوارد سعيد بالثقافة الانسانية، كضرورة لعالم اليوم والغد، وأعطى صورة حقيقية جديدة للنخبة الفكرية الفلسطينية المثقفة، وكان صاحب عقل تثاقفي، وتمتع برؤية شاملة وثقافة جامعة، وكانت حياته انسانية وغنية، فكراً وثقافة وعطاءً، وممارسة ومسلكاً، وأعتبر من صفوة المثقفين وخيرة مناضلي الشعب الفلسطيني. وقد حارب نهج المغامرة والانهزام والاستسلام، وأنتقد القيادة الفلسطينية في كتابه غزة. أريحا، ودافع عن حقوق الانسان، وذاد عن المثل الانسانية والقيم النبيلة الرفيعة، وساهم مساهمة كبرى في مسيرة النضال الوطني التحرري الفلسطيني.

وقال عنه، بحق، شاعرنا الفلسطيني الراحل محمود درويش : "لم ينجب التاريخ الثقافي الفلسطيني عبقرية تضاهي ادوارد سعيد المتعدد المتفرد، ومن الان وحتى اشعار اخر، سيكون له الدور الريادي الأول في نقل اسم بلاده الأصلية، من المستوى السياسي الدارج الى الوعي الثقافي العالمي. لقد انجبته فلسطين ولكن بوفائه لقيم العدالة المهدورة على أرضها، وبدفاعه عن حق ابنائها في الحياة والحرية، أصبح أحد الآباء الرمزيين لفلسطين الجديدة".

ولد ادوارد سعيد في القدس، زهرة المدائن وعروس الشرق، سنة ١٩٣٥، وأنهى دراسته الثانوية في مصر . وفي سنة ١٩٥٧ هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية، وهناك تعلم في جامعاتها ونال شهادة البكالوريوس من جامعة برنستن، ثم أكمل تحصيله الجامعي وحصل على الماجستير والدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة هارفرد، وبعد ذلك أصبح أستاذاً في جامعة كولومبيا الأمريكية بموضوع الأدب الانكليزي.

لادوارد سعيد كتابات ضخمة عديدة في الأدب والنقد والسياسة والفكر، ومن أهم وأبرز مؤلفاته: صور المثقف، الأستشراق، مسألة فلسطين، الأدب والمجتمع، تغطية الاسلام، العالم/ النص/ الناقد، بعد السماء الأخيرة، رواية السيرة الذاتية، الثقافة والامبريالية، سياسة التجريد أو الأسلام الأصولي، سلام أمريكي، السلام والسخط، غزة. أريحا، تعقيبات على الأستشراق، عالم المعرفة وغير ذلك .

في كتابه (صورة المثقف) يعالج ادوارد سعيد اشكالية المثقف وتمثلاته في ظروف الامبريالية، فيقول: " نحن كلنا نعيش في مجتمع، وننتمي الى قومية لها لغتها وتقاليدها ووضعيتها التاريخية الخاصة بها . فالى أي مدى يكون المثقفون خدام هذه الواقعيات؟ والى أي مدى يكونون عداءها ؟ ويصح القول ذاته في علاقة المثقفين بالمؤسسات الأكاديمية، الكنيسة، النقابات المهنية، وبالقوى الدنيوية التي اختارت في أيامنا هذه ضم الصفوة من المثقفين اليها على نحو غير عادي. ونتائج ذلك .كما عبر عنها ولفرادوين . ان الكتبة على كل الناس يتهجمون/ وللدولة بولائهم يزعقون. وبرأيه، ان الواجب الفكري الأساسي هو البحث عن تحرر نسبي من مثل هذه الضغوط. ومن هنا كان تصويره للمثقف كمنفي هامشي وهاو، وخالق لغة تحاول قول الحق للسلطة".

أما في كتابه (الثقافة الامبريالية) فيكشف فيه مدى معركته الفكرية ضد الاستعمار الثقافي وغير السياسي وراء الفكري . وهذا الكتاب هو تتمة للمسار الفكري الذي بدأه بكتاب (الأستشراق)، ويعيد فيه احياء القضايا والاشكالات، التي طرحها وتناولها في الاستشراق، ولكن في سياق أوسع وأرحب.

ادوارد سعيد كان وسيظل كبيرا، بما أعطى وقدم، وبأهمية ما أعطى في عمقه وجدته وشموليته ودقته وريادته، وبمعاركه الثقافية الانسانية ضد العنصرية المتخفية تارة وراء الاستعمار والامبريالية . انه أحد الأصوات التي حملت القضية الفلسطينية والهم الفلسطيني الى أنحاء المعمورة جميعها.

وغني عن القول ان ادوارد سعيد بكتاباته وتنظيراته وتحليلاته المتنوعة وبنشاطه الفكري والسياسي قدم نموذجاً حياً وساطعا للأكاديمي النخبوي، والمثقف العضوي، والمفكر الحر، والعقل المستنير الباحث عن الحقيقة الغائبة، والمؤصل للثقافة الوطنية والديمقراطية الانسانية . وصدق الشاعر سميح القاسم في قوله: " لم يكن ادوارد سعيد مجرد أكاديمي، بل كان احدا من أسماء الفكر الحسنى، وجمع في شخصيته بين سمات الأكاديمي العميق والمفكر المتميز وسمات المناضل الملتصق بشعبه ووطنه التصاقا الغى التشرد والمنفى" .

فسلام عليك يا ادوارد سعيد، وستبقى في ذاكرة ووجدان شعبنا ومثقفيه، ولن تموت.

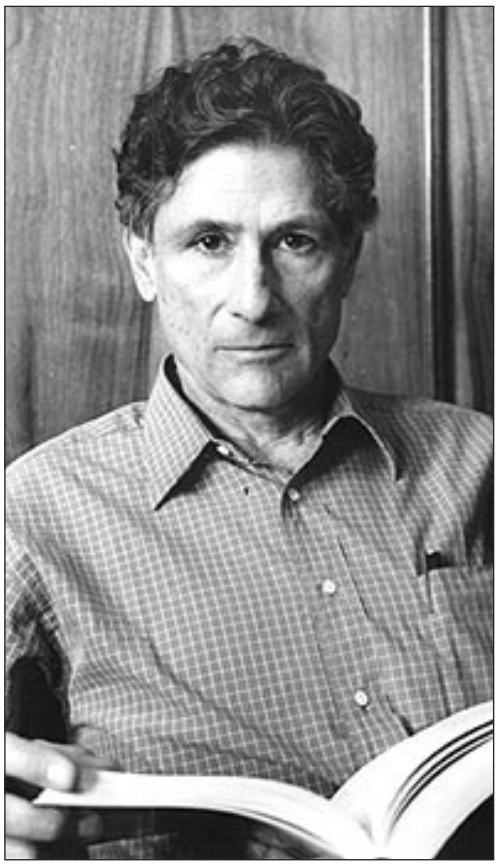

العديد من القرون والتي وصلت الى ذروتها خلال نهوض وتماسك امبريالية القرن التاسع عشر. إن المفتاح لاهتمام سعيد بهذه الطريقة في معرفة أخري أوروبا هي أنها توضح على نحو مثير الترابط بين المعرفة والسلطة، لانها " تبني" وتهيمن على الشرقيين من خلال التعرف عليهم بيل اشكروفت: ادوارد سعيد مفارقة الهوية:٦٩.

ويميز الاستشراق بين الأنطولوجي الوجودي والمعرفي الأبستمولوجي بين الشرق والغرب وهذا أسلوب تكرس عليه الاستشراق واعتمدته الدراسات الأكاديمية الغربية في إعادة تشكيل الشرق وصياغته، في عملية الإنشاء الخطابي، في إطار علاقة القوة والغلبة في مرحلة ما بعد عصر التنوير د. حفناوي بعلي: مدخل في النقد الثقافي المقارن / منشورات الإختلاف:٨١

وكشف سعيد في استشراقه النظم والآليات التي جعلت من الآخر قوة إخضاع وسيطرة، مستعينة بالثقافة لإحتجاز الشرق وتعطيله وهذا ما تم توصيفه في الثقافة والإمبريالية.

وأكد بيل اشكروفت على سياسة كتاب الإستشراق وانفتاحه وتمركزه حول نظرية الخطاب وآليات اشتغالها ومن بعد يلجأ الى تحليلها من وجهة نظر شرقية.

أن من الموقف العرقي من الشرق كما قال سعيد وسلطة الإمبريالية وثقافتها مع ايديولوجيتها المجردة لإنسانية العربي أو المسلم ذات قوة مهيمنة وأدرك الفلسطيني هذه العرقية وضغطها عليه والتعامل معها كقوة قاسية وفريدة وذلك للعلاقة الترابطية المعروفة بين المعرفة والسلطة، تلك العلاقة التي رسمت الشرقي وحددت إطاره العام " وبمعنى ما يمحوه على أنه بشر لايعد بالنسبة لي مسألة أكاديمية مقصورة على جماعة معينة. بل أنها مسألة " فكرية " ذات أهمية واضحة جداً نقلاً عن بيل اشكروفت: ٧٦.

وأشار اشكروفت الى ان اجرائية سعيد محاطة بما يصطلح عليه بالنصية التي تسمح له بان يتصور الشرق على انه خلق نصي، في الخطاب الإستشراقي، تجبر التبنيات النص على أن ينتج الغرب كونه موقعا للسلطة ومركزاً توضع له الحدود بحدية عن الآخر كونه موضوعاً للمعرفة، وحتماً، تابعاً، هذه الوظيفة السياسية الخفية للنص الإستشراقي هي ميزة لدنيويته ويكمن مشروع سعيد في أن يركز على إنشاء الشرق بوصفه بنية نصية.

أنه ليس معنياً بتحليل ما هو مخفي في نص الشرق بل في تبيان كيف يجعل المستشرق الشرق يتكلم، وكيف يصف الشرق وكيف يترجم غوامضه الى وضوح من أجل الغرب واليه اشكروفت:٩٢ .

الإستشراق .كما قدمه سعيد .خطاب كاشف عن تمركزات أوروبية، استطاعت تمثيل الشرق على الصورة التي يريدها الآخر وحصل له هذا بنجاح، حيث التراكم التمثيلي عبر تاريخ طويل، حقق للآخر سلطة تفوقه وحكمته.

أما الفصل الخاص بـ "فلسطين الفقدان والتفويض: السفر الى الداخل " فأنه يمثل جوهراً مهماً في أعمال سعيد، لأن انتباهته الى فلسطين والإسلام تمثل مركزاً قوياً بين أعمال سعيد الفكرية، على الرغم من بقاء هذا العمل خارج الاهتمام القوي ضمن انشغالات النقاد والباحثين، ولأن الهوية انبناء فلابد لسعيد من أن يعلن عن بناء نفسه كما قال اشكروفت بوصفه ضحية ولابد له من " السفر الى الداخل " الفلسطيني، والمكان الذي صاغ عناصره وتجلياته الروحية كذلك لعبت الجغرافيا التي انشغل بها كثيرا في استشراقه حيث كانت تخييلات الغرب عن الشرق، اما جغرافيته فهي ما زالت في ذاكرته وقائم فيها، على الرغم من وجوده خارجها. ويكشف هذا الفقدان لها عن إحساس قوي بالنفي والقبول، لأنه لا يعرف مصطلحاً غير النفي حتى لمن اختار هجرته الى الخارج " أن الخلع يزيد من حدة الصوت النقدي ويحرره " .

إن النصوص لم تكن موجودة خارج العالم الذي أنتجها ومن هذه النقطة يبرز مفتاح المفهوم النظري للدنيوية. وأيضاً كانت هذه هي التي أجبرت سعيداً على إعادة تقييم اندهاشه بالمعيار الغربي، كي يفهم موقعه ضمن مشروع الإمبريالية. كان على سعيد أن يؤسس مكاناً يرد من خلاله مكانا من خلاله يمكنه الكلام واستخدام مشروع التوسع الغربي في أعلى مستوى استراتيجي له، الذي هو المستوى الثقافي. وهنا تبرز الفكرة الحقيقية للمقاومة في تفكير سعيد، إدراكه إن مكانه المناسب هو أن يعيد الكتابة للإمبريالية التي صاغت الشروط التي سُلب بواسطتها شعباً ومن هنا تبدأ " الرحلة الى الداخل " اشكروفت:١٦٦

هكذا تكلم ادوارد سعيد:

الهويات تعددية والمنفى حقل كريم

×دعنا نبدأ من الاسئلة التقليدية، طفولته، الخلفية العائلية، القاهرة، والمؤثرات الثقافية المبكرة.
-رغم ولادتي في القدس فاني قضيت معظم سنواتي التكوينية الاولى في القاهرة، مصر لقد كنت نتاج المدارس الاستعمارية الامر الذي جعلني في حالة حرب شبه دائمة مع المدارس والاساتذة، والحق انني تلقيت تعليما جيدا للغاية، ولكني لم اتأثر بأي من الاساتذة او شخوص السلطة الذين كنت اعتبرهم في الصف المقابل على الدوام، التأثير ان الرئيسيان في سنواتي الاولى كانا، اولا، استاذي في الموسيقى اغناس تيغرمان، الذي درست على يديه البيانو،

وكان الرجل يهوديا من اصل بولوني يعيش في مصر، وكان عازف بيانون مرموقا وموسيقيا رائعا، وفد الى مصر في عام ١٩٣٣ وبقي فيها حتى توفي عشية حرب ١٩٦٧ لقد ترك في نفسي اثرا بالغا خصوصا لجهة موقفي من الموسيقى.

التأثير الثاني كان سياسيا، وهو الدكتور فريد حداد طبيب العائلة، كان فلسطيني الاصل ولكنه مولود في مصر وكان عضوا في الحزب الشيوعي، ومات في (سجن) ابو زعبل في اواخر الخمسينيات على يد شرطة عبدالناصر، ولقد كان بالفعل وسيطي الى السياسة، والى يسار السياسة (المعارضة السياسية).

هذان الرجلان عنيا لي الكثير في تلك السنوات المبكرة..

العائلة التي نشأت في كنفها كانت مزيجا عجيبا من العناصر العربية والمسيحية والانكليزية، نظرا لان والدي خدم في الجيش الامريكي خلال الحرب العالمية، الاولى واكتسب الجنسية الامريكية، قبل ان يعود الى فلسطين، كنا نعيش بطريقة غريبة للغاية، وانا الان اكتب مذكراتي عن تلك السنوات الاولى، اذ ان اسرتي كانت تعيش في ما يشبه الشرنقة، دون الكثير من الصلات بالعالم المحيط بنا.

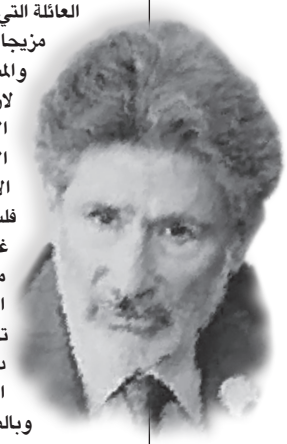

وبالطبع، حين وصلت الى امريكا عام ١٩٥١، انتسبت على الفور الى مدرسة داخلية في نيو انكلند، ثم الى جامعة برنستون، فجامعة هارفارد، وخلال هذه السنوات الاثنتي عشرة، بين عام ١٩٥١ وعام ١٩٦٣ حين حصلت على الدكتوراه كانت صلاتي مع العرب محدودة للغاية، كنت طالب ادب اوروبي وغربي على نحو كلي، ولم استرجع صلتي بالعالم العربي الا في عام ١٩٦٧ حين وقعت الحرب.

في غضون ذلك، بقيت اسرتي في الشرق الاوسط، وكنت اعود خلال فصول الصيف لرؤيتهم لكن دراستي كانت غربية تماما، ولم يتولد اهتمامي باللغة والادب العربيين الا في طور لاحق، واعتمدت في ذلك على نفسي.

×في ادى مقابلاتك تحدثت عن مغادرة كلية فكتوريا الانكليزية القاهرية في حالة من الخزي، كيف حدث ذلك؟

-نعم، لقد طردت في صيف ١٩٥١، وحين وافقوا على اعادتي لاستكمل فصلا دراسيا كانت اسرتي قد قررت عندها انني اجد الكثير من الصعوبات مع النظام الانكليزي، ومن الحكمة ارسالي الى امريكا بالنظر الى تمتعنا بالجنسية الامريكية، وهكذا، في ربيع عام ١٩٥١ عثروا لي على مدرسة داخلية في ماساشوستس، وغادرت مصر في صيف العام ذاته، ووصلت الى امريكا، وحدي، ولقد قضيت سنتين في تلك المدرسة، كانت الاكثر بؤسا في حياتي، لقد كانتا على درجة عالية من الصعوبة.

×وصل عبدالناصر الى السلطة وانت في امريكا، واول مقال سياسي كتبته دار حول حرب السويس، هل يمكن القول انك كنت ناصريا، بمعنى ما، في تلك الفترة؟

-بالتأكيد، لان عبدالناصر كان يمثل بالنسبة لي، في امريكا، شخصية متمردة على سلطة الغرب، كنت امقت وابغض جون فوستر دالاس، الذي كان خريج جامعة برنستون، وكان الابن المدلل الذي يفخرون به، ماكان يشدني الى عبدالناصر هو انه يتحدى اميركا، فتعلقت به، ولكن في اواخر الخمسينيات، حين كان صديقي الدكتور فريد حداد يتعرض لمضايقات شرطة عبدالناصر وحين اكتشفت ممارسات ناصر ليس ضد الشيوعيين، فحسب، بل ضد ابناء البرجوازية من امثال اسرتي، بدأت اكرهه بسرعة، وبالطبع، في عام ١٩٦٧ فقدت اي امل معه، وانني اتذكر جيدا انه حين توفي في عام ١٩٧٠ دعيت من قبل العديد من الجامعات والمنظمات العربية للتحدث في ماسبات تأبينه، فلم استطع لقد وجدته شخصية مأساوية ولكنها حافلة بالمثالب، بحيث فشلت في مصالحة ذاتي مع ما آل اليه.

ولهذا فقد كنت ناصريا، ولكن في طور قصير للغاية..

×هل لك ان تحدثنا عن المزيد من الجوانب الذاتية والحميمية من طفولتك؟

•يصعب عليّ ان اتحدث عنها، لانني الان اعكف على كتابتها في مذكرات ولكني سأتحدث عن امر واحد كان على الدوام شديد الاهمية عندي، لقد احسست، منذ الاطوار الابكر من وعيي، انني في نزاع مع البيئة التي انتمي اليها، اقصد القول انني كنت في مصر، ولكني لست مصريا، وانا عربي ولكني لست مسلما، وانا مسيحي ولكني بروتستانتي ولست مسيحيا كاثوليكيا، وانا ناطق بالانكليزية ولكني لست انكليزيا، وانا امريكي ولم يسبق لي ان ذهبت الى امريكا، ولهذا، اعتقد ان الاحساس الطاغي الاكثر اهمية في سنواتي المبكرة، والذي تواصل بعد ذهابي الى امريكا وينبثق بالفعل في ما بدأت اكتبه في الثمانينيات بشأن موضوعة النفي، هو انني على الدوام كنت اشعر بنفسي منفيا في الداخل وفي الخارج على حد سواء، لم يسبق لي ان كنت في الموضع الذي ينبغي ان اكون فيه، ورغم ولادتي في القدس فان احساسي بفلسطين ظل يدور حول فلسطين الفكرة لا المكان الفعلي، وحين زرت فلسطين بعد غياب طويل، في عام ١٩٩٢ وجدت نفسي في حال من النزاع معها ايضا..

ولقد قررت انني في حالة من الاقتلاع الدائم، وكان ذلك الاحساس شديد الاهمية طوال حياتي، الامر الذي عنى وجوب ان اقوم بكل شيء –فكريا او جماليا– على حسابي واعتمادا على ذاتي في نهاية الامر.

ولقد كنت في واقع الامر غير قادر على اقتفاء درب استاذ او شخص آخر، وتعين عليّ ابتكار درب لنفسي، وكانت تلك مهمة مميزة، في سنواتي المبكرة الاولى وقعت لي متاعب عديدة مع الاساتذة على سبيل المثال، وشخوص السلطة مثلوا بالنسبة لي العدو الدائم دائما، بين هؤلاء كان والدي وجميع اساتذتي باستثناء حالة او اثنتين، وكذلك اية مؤسسة اقترنت بها سواء أكانت مدرسة ام جامعة ام معهدا ام ما اشبه، ولكنني قررت ان هذا بالضبط هو مايجعلني منتجا: ذلك الاحساس الذي ليس الاغتراب تحديدا، بل المعارضة والتوتر وحالة العصيان.

ولكني في اوقات اخرى شعرت انني لا احد، اذ لم اكتشف من انا وماهي سيرتي حتى وقت متأخر وهذا ما اكتب عنه الان في مذكراتي: ان (ادوارد) هو ابتكار خاص بأهلي، وان يحمل المرء اسم (ادوارد) في العالم العربي امر اقرب الى النكتة كما تعلم، ولهذا توجب عليّ ان اكتشف ما هو في الباطن من ادوارد الشخص الاخر القادر على الانبثاق من ادوارد واحتلال موقعه على نحو اكثر يسرا مما فعلت انا، وهذا ما حدث..

×هل لك ان تتحدث باسهاب اكثر عن المؤثرات الفكرية المبكرة؟

-اعتقد ان الرواية كانت التأثير المبكر الاكثر اهمية لقد كنت طفلا منعزلا، ولم يكن لدي اصدقاء حقيقيون، لكن اهلي امتلكوا مكتبة واسعة للغاية وذات تنوع مدهش، بينها روايات تبدأ من الكلاسيكيات مثل ديكنز وسكوت خصوصا من جهة اولى، ومن جهة ثانية: الروايات الرخيصة الشعبية لروائيي القرن التاسع عشر من امثال : كونال دويل وجون بوكان وادغار رايس بوروز مؤلف طرزان، ولقد قرأتها جميعا!..

ولهذا، كانت الروايات ذات اهمية بالغة بالفعل، منذ الطور الابكر من حياتي ولقد تأثرت كثيرا بكل من سكوت ودانييل ديفور والكسندر دوما، والروايات المسلسلة، كذلك اعتدت قراءة شكسبير بمساعدة والدتي،

وكنت اذهب لمشاهدة المسرحيات التي تعرض في مصر خلال الحرب، وفي عام ١٩٤٤ شاهدت جون غيلغود يؤدي دور هاملت، ولكني قرأت شكسبير بأكمله بمساعدة والدتي، التي كان لها تأثير فكري هائل عليّ في تلك السنوات المبكرة بسبب ان اهتماماتها كانت مماثلة لاهتماماتي.

هنالك الموسيقى بطبيعة الحال لقد اعتدت سماع الموسيقى والعزف على البيانو، خصوصا مقطوعات الاوبرا انذاك، واذكر انني اكتشفت روسيني في سن الثانية عشرة او الثالثة عشرة، لقد كنت سابقا لعمري، وامتلكت ذاكرة موسيقية رفيعة، حتى انني في سنتي الثانية كنت قادرا على حفظ وترداد ثلاثين او اربعين اغنية كذلك كان الامر بالنسبة للموسيقى الكلاسيكية والعزف على البيانو كنت قادرا على الاداء في وقت مبكر وبسرعة كبيرة.

ثم انتسبت الى المدرسة، وكان ما كان بالنسبة لتعليمي، ولكني اعتقد ان الفيلسوف الايطالي جيانبا تيستا فيكو كان في طليعة المؤثرات الفكرية الهامة، وهو ما اكتشفته وحدي ايضا في الواحدة والعرين او الاثنين والعشرين من عمري، لقد مثل فيكون علامة فارقة كبرى في حياتي الفكرية وكنت بالطبع بالغ التأثر بالفلاسفة والكتاب ذوي النزعة المفارقة الناشزة، واذكر تأثري المبكر بكل من (سورين) كيركغارد والشاعر (وليم) بليك، ومختلف الكتاب الفرنسيين من امثال (شارل) بودلير، و٠جيرار دو) نيرفال، واساسا (غوستاف) فلوبير، و(مارسيل) بروست اللذين اكتشفتهما في الثامنة عشرة او التاسعة عشرة، اما التأثير الاطول في حياتي، بأسرها من اليفاعة حتى الان، فهو جوزيف كونراد.

×هل ثمة مغزى خاص في ان اول رواية قرأتها كانت (روبنسون كروزو)؟

-لست متأكدا انها الرواية الاولى، ولكنها بالتأكيد كانت بين الروايات الاولى، انطباعي ان الاولى كانت رواية والتر سكوت (ايفانهور) التي قرأتها في الثانية عشرة من العمر، ربما، واذكر انها شدتني للغاية. (روبنسون كروزو) جاءت بعدها مباشرة لانني اتذكر النسخة ذاتها، كانت الطبعة جميلة مزينة بالصور الملونة، كنت مسحورا بفكرة رونسون كروزو باسرها، ثبابه، والببغاء، وجمعة، شخصية (جمعة) Friday كانت لغزا تاما بالنسبة لي، ولم اتمكن من التماهي، معه او فهم الكائن الذي هو عليه، لانه ببساطة صامت في الرواية ولكني لم اشرع في قراءة (روبنسون كروزو) من وجهة نظر ثانية حتى وقت لاحق..

لكن الحكاية جذبت انتباهي، واذكر انني حاولت تقليدها وكتابة قصص شبيهة بها وذات مرة في سن الثانية عشرة او الثالثة عشرة، فكرت في كتابة قصة عن كتاب، مغامرات كتاب يقرأ وينتقل من شخص الى آخر، ثم ينسى في قطار واعتقد ان الامر كان فانتازيا حول نفسي، وانني قد اكون في يوم ماقادرا على التحول الى كتاب..

لقد كانت الكتب هي سميري بالفعل، وكنت شديد الامتنان لوجود عدد هائل منها في البيت ولكني في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة بدأت اقلق من جراء قيام والديّ بسحب بعض الكتب التي رغبت فيها من المكتبة مثل اعمال فرويد، ، وكتاب تقني عن الزواج وبعض الروايات).. لقد كانا يحاولان فرض الرقابة على ما اقرأ، فنشبت بيني وبينهم معركة دائمة، على سبيل المثال، كان كتاب فرويد (تفسير الاحلام) في المكتبة واذكر انني شرعت في قراءته وانا في الثالثة عشرة، وذات يوم اخرجته وقرأت فيه، وكانت قراءتي تتم في غرفتي على نحو سري، في ساعة متأخرة من الليل او مبكرة في الصباح، ولقد ارتكبت خطأ حين تركت كتاب فرويد خارج المكتبة ذات ليلة، فاختفى في اليوم التالي، ولم اجد له اثرا بعد ذلك.

×اواخر الخمسينيات ومعظم الستينيات شهدت مايعرف بـ(تحرير) العلوم الاجتماعية لا سيما مع انثروبولوجيا ليفي- ستروس وعلم نفس الشعوب البدائية عند ليفي -برول، هل كان لهذه الاتجاهات وما يشبهها تأثير مبكر عليك؟.

-بالطبع، لقد كانت دراستي في امريكا، كطالب جامعي في برنستون ثم مرحلة تحضير الدكتوراه في هارفارد، تقليدية للغاية، لقد تلقيت تعليما ممتازا، اقصد انني درست الاداب الانكليزية والفرنسية والايطالية، واداب الاغريق والرومان وبعض المسرح والكثير من الفلسفة والكثير من الموسيقى، لكن الامر تم بطريقة تقليدية للغاية، وغير نظرية على نطاق واسع، لم اتلق اي درس في النظرية لان هذه الدروس لم تكن تعطى ببساطة.

في هارفارد كنت احضر للدكتوراه في الادب المقارن وتوجب ان اقرأ كل شيء، ولم يكن ثمة تركيز على المنهجية، بل على قراءة مادة واسعة، ومهما كانت طبيعة المنهجية التي اكتسبتها، اذكر انني قرأت وانا طالب في هارفارد كتاب جورج لوكاش (التاريخ والوعي الطبقي) بترجمة كوستاس اكسيلوس الى الفرنسية وفي العام ذاته ١٩٥٨ او ١٩٥٩ قرأت ترجمة ستانلي ميتشل الانكليزية لكتاب لوكاش (الرواية التاريخية) وحدي الحالتين وبالطبع كنت، في تلك الفترة قد اكتشفت فيكو.

ولقد بت نهما الى نصوص النظرية، التي يمكن ان تخرجني، واعتمادا على نفسي ايضا، من الدرب الشكلاني او اللاتاريخي او اللانظري الذي كنت اسير فيه، كنت احضر للامتحانات واكتب اطروحتي عن كونراد، ولكني لم اتوقف عن البحث عن النظرية، وفي عام ١٩٥٩ او ١٩٦٠ وعلى سبيل المثال اكتشفت مارتن هايدغر و موريس ميرلو بونتي، وحدي من جديد.

ثم انهيت الدكتوراه وغادرت هارفارد في عام ١٩٦٣ وجئت الى (جامعة) كولومبيا، وبدأت على الفور اتحسس بعض مايجري هنا في فرنسا، اول المحطات كان (لوسيان) غولدمان، الذي قادني الى ليفي -ستروس، وهذا بدوره قادني الى رولان بارت، وخلال عام ١٩٦٦ التقيت بهم جميعا هنا في امريكا، خلال مؤتمر ضخم ضم (جاك) دريدا وبارت وجاك لاكان وتزفيتان تودوروف واخين، وفي اواسط الستينيات كنت قد انخرطت تماما في اعمالهم، لانني اكتشفتهم في سياق نوع من (تحرير) الذهن او التحرر من المناهج الانغلو سكسونية الجامدة، غير النظرية، او الوضعية او ما سمي انذاك بمقاربة النقد الجديد والتي كانت تحت سيطرة ت.س اليوت الشديد وتحولت في امريكا الى نوع من العقائدية الجامدة اعتبرتها خانقة.

ذلك التأثر، في حالتي، استمر نحو عقد من الزمن، بين ١٩٦٣ مطلع السبعينيات حتى كتاب ميشل فوكو (الانضباط والعقاب) ثم بلغ نهايته، لقد ادركت انني اخذت منهم ما اردت اخذه، لانني لم اكن ابن مدرسة قط، ولقد اعتدت لقاء دريدا في هذه القاعة بالذات حيث نجلس وكان يأتي لالقاء بعض المحاضرات وكنا على ود تام ولكن منهجي نهض دائما على رفض انظمة الاخرين وادركت ان الفرنسيين كانوا يبنون امبراطوريات ويفتشون عن حواريين لقد عرفتهم جميعا بصفة شخصية ولكني ادركت ان دربي مختلف، وانني اسير في اتجاه اخر، وبالطبع في اواسط الستينيات وعام ١٩٦٧ تحديدا، بات العالم العربي هاما بالنسبة لي، ولم يكن لدى هؤلاء ما يضيفونه لي على ذلك المستوى، وهكذا اسقطتهم من حسابي.

اضف الى ذلك، انني لم اكن في يوم من الايام متأثرا بـ(لوي) التوسير، رغم انني قرأته، بل قرأت كل ما كتبه، لكنه لم يحركني وادركت في اواخر الستينيات، ان اكتشافي لكتابات انطونيو غرامشي كان اكثر اهمية عندي، فضلا عن استمرار اهتمامي بأعمال لوكاش الاولى مثل (نظرية الرواية) و(الروح والاشكال) ومقالاته المبكرة عن المسرح، واعتقد ان لوكاش شخصية فذة كبيرة.

×وماذا عن ميشيل فوكو؟

-لقد اثار فوكو اهتمامي، وكنت بين اوائل من قرأوا وكتبوا عن غولدمان وليفي- ستروس وميرلو- بونتي وفوكو في امريكا، ولكنهم اثاروا اهتمامي حتى نقطة محددة فقط، لانهم في نهاية الامر لم يخاطبوا تجربتي، لقد مثلوا وجهة نظر فرنسية وجدتها هامة ومخلصة، وثمة ما يتوجب اخذه منها، لكنها لم تكن تأثيرا من النوع الملازم، ولقد فقدت الاهتمام بالفرنسيين الذين مالوا الى النزعة الاقليمية شيئا فشيئا..

×كتابك الاول (جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية) الذي صدر عام ١٩٦٦، وكان في صيغته الاصلية اطروحتك للدكتوراه في هارفارد، كان اول دراسة تتناول العلاقة بين مراسلات كونراد الخاصة ورواياته القصيرة وانت في الكتاب تركز على نقاط ستصبح موضوعات اساسية في نقدك اللاحق للرواية: الهوية، الذات فينومينولوجيا الوجود، التوترات الديناميكية بين الامم والكيانات الفردية، النزعة الاوربية، (الادبي) في امتداده في المجتمع والتاريخ الى آخره، هل كان الكتاب خطوة اساسية نحو نظام منهجي في القراءة الطباقية؟.

-هذا الكتاب وكتاب (البدايات : القصد والمنهج) كانا هامين بمعنى تجريب الصواب والخطأ لقد كنت بطريقة ما احاول العثور على ارض مشتركة بين المشكلات الاعمق في التجربة المعاشة، وهي في حالة كونراد مشكلة الهوية، او بالاحرى غياب الهوية او انخلاع الهوية المنكسرة، ومشكلة اللغة، والاستمرار، ولقد ركزت على الروايات القصيرة لانني احسست انها الموقع الذي تبدى فيه حرص كونراد على تطوير الروايات القصيرة الى روايات طويلة.

او على الذهاب من الشكل القصير الى الشكل الكبير، الامر الذي كان مشكلة على الدوام، وهكذا تناولت جميع هذه الجوانب الاشكالية عند كونراد، وحاولت وضعها في سياق موضوعي نسبيا عند القارئ، حياة كونراد، مساره، نجاحه، فشله، ناشروه، اصدقاؤه، الابحار، بولونيا.. وبدأت اطور منهجا لتناول المسألتين معا، على نحو طباقي، واعتقد انني نجحت بطريقة متواضعة ولكني هنا اعتمدت كثيرا على الفلسفة الوجودية، وفينومينولوجيا ميرلو- بونتي وعلى هايدغر كما ذكرت.

في (البدايات) كنت، كما هو واضح، احاول تكوين سبيل جديد لنفسي، واعتقدت أن التشديد يقع على فيكو، لانه كان اول من اوضح ان البدايات لاتكتشف، بل تصنع وتخلق وتصاغ، اقصد القول انني، وانا في مطلع الثلاثينيات من عمري، كنت قد اكملت الاشياء التقليدية، ووضعت كتابا وبعض المقالات، والمطلوب الان ان يكون لي اسم بطريقة ما ولقد استغرق ذلك زمنا طويلا بدأ في عام ١٩٦٧ وانقطع بفعل الحرب، ثم احسست ان الضرورة تقتضي الاهتمام بمنهج ما في خلق اي مشروع اختيار المنهج كان شكلا من اشكال البداية، لكن المركزي فيه بالطبع كان مشكلة القص او النص السردي من اين يبدأ المرء؟ الى اين يذهب المرء؟ القص السردي لاي بصفته مسألة معطاة، بل كشكل من التحرش، وكيف يقحم على احساس المرء بنفسه الى ما هنالك..

ثم جاء بعد ذلك سؤال برمته حول نقد مطابق لتلك الفكرة، وتكثف الامر منذ اهتمامي بالبنيوية وميشيل فوكو، ومدى ملاءمتها، لقد اعتبرت ان الكتابين تجريبيان اسفرا عن نتائج غنية للغاية، وحدث انهما تضافرا تماما مع حرب ١٩٦٧ وعودتي الى العالم العربي، لقد ذهبت الى عمان في عام ١٩٦٩ وكنت فيها عام ١٩٧٠ خلال احداث ايلول الاسود، ثم بدأت انخرط في الحركة الفلسطينية وفي العام ذاته تزوجت من امرأة لبنانية هي مرين، وخلا سنتي ١٩٧٢ -١٩٧٣ انهيت (البدايات) في بيروت، حيث قضيت السنة الاكاديمية متفرغا وهناك بدأت ادرس اللغة العربية، اذ لم يسبق لي ان قمت بذلك على نحو جدي في المدرسة، وكنت قد انصرفت عن دراسة العربية منذ سن الخامسة عشرة تلقيت دروسا يومية على يد انيس فريحة، وقرأت معه العديد من النصوص الحديثة والكلاسيكية: طه حسين، توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، ثم كنا نعود الى التراث، لنقرأ الغزالي وابن خلدون، وكانا بين اكتشافاتي الفكرية الكبرى في تلك الفترة، فضلا عن العديد من النصوص التاريخية والشعرية. ذلك، كما اعتقد، قادني الى مسألة الاستشراق، ولقد خطرت لي الفكرة حين عدت الى هارفارد كأستاذ زائر في عام ١٩٧٤ تلك كانت فترة حرب ١٩٧٣ وبدأت ارى كيف يمكن ربط الاحداث المسرودة بالتمثيلات الشعبية، وكانت الاحداث المسرودة هي الشيء الرئيسي وبعدها تأتي مشكلة التمثيل كمسألة تالية، وهكذا بدأت الاهتمام بما سيتحول فيما بعد الى كتاب (الاستشراق)..

×قبل مناقشة كتاب (الاستشراق) توجد نقطة ذات صلة به، في معظم الكتابات التي تدور حول الاسلام او الشرق عموما، ينصب التركيز على مايمكن وصفه بمراكز العمران، وعلى المراجع والنصوص، اما المجتمع الحياة اليومية، والتراث الشفهي والثقافة الشفهية، فهي شبه غائبة، كيف تفسر هذه الظاهرة؟..×في كتاب (الاستشراق) حدثت نقلة راديكالية في اهتمامك الطاغي بالقوة السياسية بوصفها خطابا، وجادلت بأن الاستشراق كحركة ارتجاعية ايديولوجية ومنهجية، هو اداة في انتاج الهوية الغربية، فضلا عن الهوية (المتخيلة) الشرقية، وفي تقوية الارادة الغربية لفرض الهيمنة على الشرق، كيف بدأت تلك النقلة للمرة الاولى؟.

كما اسلفت، اعتقد ان الامر بدأ مع حرب ١٩٧٣، بوصفها الحدث الاكثر راهنية، لانني رأيت ان مايجري على الارض في الرق الاوسط، بالاضافة الى ما اكتسبته عبر تجربتي الشخصية لم يكن يتوافق ابدا مع ما يكتب في وسائل الاعلام الامريكية على سبيل المثال ثم اخذت اتصور الفكرة القائلة بأن ما يراه المرء ويقرأه في الغرب كان جزءا من نظام تمثيل لم تتم بعد دراسة تاريخه ونطاقه على نحو منهجي ومعمق وهكذا شرعت في القيام بذلك وبدأت العمل في شتاء ١٩٧٤ اثناء قيامي بتصحيح مسودات كتاب (البدايات) وكنت آنذاك في هارفارد.

ثم تطور المشروع بما يكفي خلال الاشهر التسعة اللاحقة كنت منهمكا للغاية اذ ولدت طفلتي وكان برنامجي التدريسي حافلا في الجزء الاخير من عام ١٩٧٤ وضعت مشروع الكتاب وكنت احاول اقناع الناشرين بقبوله، واذكر ان الاهتمام كان محدودا في بادئ الامر ولكن افضل ماحدث لي انذاك كان حصولي، في كانون الثاني (يناير) او شباط (فبراير) من عام ١٩٧٥ على منحة تمكنني من قضاء سنة ١٩٧٥- ١٩٧٦ باسرها في كاليفورنيا للعمل على الكتاب.

وهكذا، ذهبنا الى كاليفورنيا وقضيت ما استطيع ان اعتبره اخصب اعوام حياتي من الناحية الفكرية، كنت متحررا تماما من واجبات التدريسي وكنت انذاك في برنستون (مركز دراسة علم السلوك) لم يكن لدي هاتف، وتوفر لي الكثير من العون في مجال السركتاريا وخدمات البحث فصرفت العام باسره وانا اقرأ فقط.. اي شيء له علاقة بهذا الهدف الذي اسمه (الشرق) وحين كنت في كاليفورنيا مع زوجتي وطفلي الصغيرين اندلعت الحرب الاهلية في لبنان ولقد احسست ان ثمة سيرورة تاريخية تتنامى، هي التي اكتب عنها، وفي الشرق الاوسط ذاته كانت الحرب الاهلية العربية قد بدأت تدمر العالم العربي كما عرفناه، والصفحة الاولى من كتاب (الاستشراق) تبدأ بصحفي فرنسي (تييري دوجاردان) ذهب الى بيروت وكتبت اسفا (عن قلب المدينة المدمر) لقد بدا وكأنه انتمى ذات يوم الى شرق شاتوبريان ونيرفال..

واذ مضيبت قدما في العمل توجب عليّ ان ابتكر بداية، وقصدا، ومنهجا لما اقوم بكتابته وكنت احاول التوصل الى نتيجة تسمح بتحرير نظام التمثيل بأسره ولا ادري اذا كنت قد نجحت ام لا، ولكن الفكرة دارت حول استبدال نظام الهيمنة واساءة التمثيل الذي يحمل اسم الاستشراق بفضاء يسمح لنا ان نكتب تاريخنا الخاص، لكن كتابة ذلك التاريخ لم تحدث في واقع الامر.

اعتقد ان دريدا رجل لامع تماما، لقد احببته، وقامت بيننا صلات شخصية وطيدة، ولكني مع ذلك شعرت بتلك الحالة الطفيفة من انعدام التوازن بين منهج التفكيك ذي الطابع التشكيكي وربما الفوضوي العالي من جهة

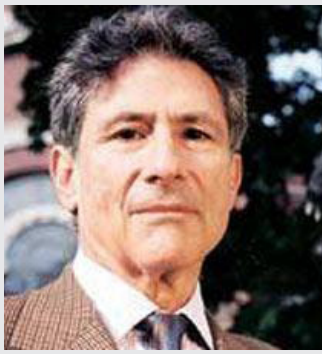

مجل الكرمل عدد الخريف لعام ٢٠٠٣ اجراه صبحي الحديدي

ربما يدفع سحر الشرق بتراثة المتنوع الى تحفيز المستشرقين لدراسة حضارة الشرق ورموزه وتارة اخرى دوافع سياسية واقتصادية ومعرفية ،الرؤى والطروحات التي قدمها المفكر العربي ادوارد سعيد جاءت نتيجة قراءة واقعية للتاريخ الانساني ومعرفة علمية دقيقة وواعية للاسباب والدوافع والنتائج التي اثرت في تشكيل الوعي لمعرفة حركة التاريخ فالعمق والاصالة والدقة والجرأة حد الادهاش في معالجة حالات الاستشراق يعد تثويرا للمعرفة الانسانية وكشف وتسليط الضوء على الثقافة الغربية وآلية ومنهجية السيطرة على الاخر وفق ارادة تمليها القوة والسلطة سياسيا واقتصاديا وثقافيا.

ادوارد سعيد والاستشراق

صباح محسن كاظم

ان هذا الفهم العميق لعلاقة المعرفة والقوة والستراتيجية والتكتيك والاقتصاد فجاء نتاج سعيد المعرفي ليؤسس لفهم حضاري للاخر عن الشرق وليس كما يدعي الاخر بالحتمية التاريخية التي تحكم مفكريه، فالغرب الذي ينظر وفق رؤى واشتراطات تاريخية ودينية واقتصادية ويبني تصوراته حسب تلك الرؤى ويؤسس مناهجه عن الشرق اللامتغير والشرق التاريخي وهذه الدراسة الفوقية المتجذرة للقوة والمعرفة والانشاء الذي ولد من هذا الرحم. لقد حاول ادوارد سعيد فك الاشتباك والالتباس عند الاخر. حول العرق والدين والحضارة والثقافة فهوية الشعوب وخصائصها الثقافية والفكرية هي وليدة نتاجه المعرفي ينشأ موروثا حضاريا خاصا ذاتيا بدلالات تميزه عن الاخر ان المستشرق المتضلع في معرفة الشرق وثقافته وادابه يدرس ذلك بموضوعية تامة بعيدا عن التزييف والدس وقد يصبح المستشرق الواقعي النظرة تميزا انطلوجيا وابستمولوجيا في معرفة ثقافة الشرق فدراسة الانثروبولوجيا والتاريخ والاساطير والمعتقدات والاديان هو المجال الذي يتحرك فيه الاستشراق هنا يطرح تساؤل مشروع هل كل المستشرقين موضوعيين او عكس ذلك ؟ يتوقف الجواب على قرب وبعد الباحث عن الحقيقة من دون ايدولوجيا موجهة او براغماتية خاصة وتصنيف المعلومات بشكل دقيق وعدم القفز على الاحداث التاريخية او تحميلها افكارا لم تحركها من الاساس وانما من خلال نظرة المستشرق التي قد تكون قاصرة احيانا فالمستشرقون من المبشرين والرحالة والانثروبولوجيون ومؤرخو الحضارات والاقتصاديون والاكاديميون والمهتمون بعلاقة الاسلام والمسيحية لا ريب ان الاهتمام بمعرفة الاخر من خلال حوار الحضارات والتاثر والتاثير المتبادل للفكر الانساني يمثل الاستشراق احد الجسور المهمة في فهم الاخر بالنسبة للغرب فسحر الشرق بمعتقداته ورؤاه وموروثاته مادة حية للدراسة فيحاول المستشرق فك طلاسم ورموز واشكالية الديني والثقافي فهو انطلاقة لفهم الذات من خلال فهم وعي الاخر وكذلك هو مساحة للقاء والحوار فهناك ثوابت وقناعات ان الحوار يلغي العداء حتى ولو كان مستحكما.. ان الا ستعمار الذي حا ول الهيمنة في القرنين ١٨-١٩ على الشرق ومحاولة العولمة فى اختراق ثقافة الاخر والغاء موروثه باستبداله بقيم هي تعممها من المركز الى الاطراف فهي مشروع لمصادرة ثقافة الاخر.. ان محاولة التشويش الفكري بان الشرق خزين للسحر والخرافة والغرابة ويفرط في الميثولوجيا فالخروج من هذا السياق التصوري بحاجة الى حوار واقعي يميط اللثام عن الموروث الثقافي والتاريخي والتراكم المعرفي من اكتشافات وملاحم ومنجز ابداعي في كل حقول المعرفة ساهم فيه الشرق وقدمه للانسانية، ففهم الهوية والذات واشكالات الاخر يوصل الى المعرفة الحقيقية والرؤيا الحقيقية للتاريخ لا يختلف اثنان على ما قدمه الشرق من منظومة قيم ورؤى تاريخية ساهمت في تشكيل الوعي في الثقافة الانسانية فطبائع الحضارة والنظم في الري والزراعة والعمران والفنون والاداب والاجتماع وصياغة التشريعات والقوانين التي جاءت لصالح حقوق الانسان وحرياته في ظل هذا الارث الكبير لا يمكن للغرب تجاوزه فالتنوير يعكس ظلاله في النقاط المعتمة واذا استقرئنا التاريخ بدقة نجد ان الشرق مصدر للقيم ومهد النبوات والاصلاح وحتى عندما وصل العرب الى الاندلس ناقلين المعارف والفلسفة والاداب والفنون والموشحات ولو عكسنا ذلك نجد ان الاخر عند غزوه الاستعماري كان هدفه نهب الثروات والسيطرة.. ان التعاطي مع تلك الحوادث التاريخية يحتم الحوار لصالح المجتمع الانساني بعيدا عن النوازع والمآرب والمصالح لحساب طرف على الاخر، ان صرخات الحروب والعدوان والاستعلاء ينبغي ان تستبدل بالحوار المتزن الهادف الذي يحقق السعادة والسلام في المحيط الدولي .

لقد قدم المفكر ادوارد سعيد في الاستشراق اساليب جديدة في التحليل والاستنتاج وتأويل التاريخ والثقافة والقراءة الواقعية في الثقافة والامبريالية محاولا ردم الهوة وتجاوزها لفهم الشرق وحضارته وتشكيله الثقافي وهذا عكس ما يطرحه صاموئيل هنغتون في صراع الحضارات او ما يطرحه فرنسيس فوكاياما في نهاية التاريخ فهم يعدون الصراع حتميا لتفوق الغرب وهمجية الشرق وهذا خلاف واقعي للتاريخ والثقافة فثمة اشكالات غربية طرحت على تلك الاراء وفندت تلك المكونات غير الواقعية والمجافية للحقيقة يذكر المفكر ادوارد سعيد في كتابه الثقافة والامبريالية (ص٣٣٩:- الامبريالية لم تنته لم تتحول فجأة الى ماض ما ان اطلقت عملية فكفكة الاستعمار حركة تفكيك الامبراطوريات التقليدية الكلاسيكية ذلك ان ارثا من الوشائج ما يزال يشد بلدانا مثل الجزائر والهند الى فرنسا وبريطانيا على التوالي ويقطن عدد جديد هائل من السكان من المسلمين والافارقة واهالي جزر الهند الغربية الذين ينتمون الى مستعمرات سابقة في الحواضر الاوروبية حتى ايطاليا والمانيا واسكندنافيا تجد نفسها اليوم مضطرة الى مواجهة هذه الانزياحات التي هي الى حد بعيد من عقابيل الامبريالية وفكفكة الاستعمار كما انها من نتائج التوسع السكاني الاوروبي وكذلك فان نهاية الحرب الباردة والاتحاد السوفيتي قد غيرت بصورة قطعية خريطة العالم في انتصار الولايات المتحدة بوصفها اخر الدول العظمى).

تتدخل لمصلحة رسم مسار خاص للانسان وليس كما يريد الاخر .وقد اعجب المستشرقون بعظمه الرموز العربية كالرسول الاعظم محمد (ص) وشخصية الامام علي (ع).وكذلك بالمنجزات الحضارية العربية بكل ابعاد المعرفة

اراد سعيد استدعاء التاريخ والثقافة حضوريا للاستفادة من تثوير وعي للتعاون الانساني يتحقق فيه الوفاق والسلام والتعاون وعدم التمدد الا ان واقع التاريخ لا يسير باتجاه ما يرسمه له المخططون والساسة والستراتيجيون بشكل مطلق الا ان هذا وفقا لسنن كونية تتدخل لمصلحة رسم مسار خاص للانسان وليس كما يريد الاخر .وقد اعجب المستشرقون بعظمه الرموز العربية كا لرسول الاعظم محمد (صلى الله عليه واله وسلم) و أنبل شخصية في الانسانية الامام علي (عليه السلام).وكذلك بالمنجزات الحضارية العربية بكل ابعاد المعرفة .

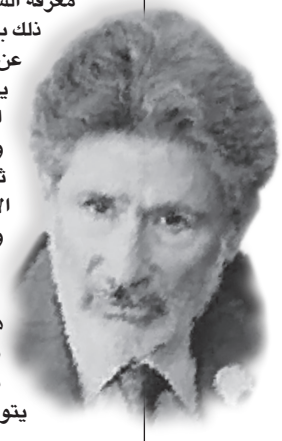

فضح سطوة الآخر

ينصب جهد ادوارد سعيد على الحديث عن التصور الغربي الذي يقيم تمييزه لنفسه ويحدد موقعه في العالم من خلال تقديم تصور نمطي عن الآخر او الشرق وهو تصور عملت مؤسساته البحثية عبر عشرات السنين على ترسيخه وتقويته باستعمال المنهج وادعاء العلمية والموضوعية التي تظهر شرقا وتضمر شرقا آخر، وليمارس الغرب من خلال ذلك سلطته التي تأتي من المعرفة او ادعاء المعرفة بذلك الشرق، معرفة تفوق معرفة اهله به. وهي معرفة لا تنتمي الى الاخرين كما يقول (اشكروفت) ولا تمثل حقيقتهم ولكن هذا لا يمنع من ان يصدقوها ويخضعوا لها في النهاية.

عقيل عبدالحسين

ان خلق الشرق ضروري كما يرى ادوارد سعيد كي يستطيع الغرب تعريف نفسه وتقوية هويته فبالشرق يعرف الغرب ويقوى. ولنقل بالروحاني يعرف العقلاني وبالبربري يعرف المتحضر وبالمتأخر يعرف المتقدم وهكذا..

تعمل الثقافة الغربية على تعزيز موقع الغرب وعلى الدفاع المستمر عنه بادوات ووسائل مختلفة، يتوقف ادوارد سعيد في كتابه (الثقافة والامبريالية) على واحدة من اهمها، اعني السرد بوصفه تمثيلا للهوية وللذات وللآخر. وهو تمثيل تظهر الذات فيه متفوقة وقطبا فيما يظهر فيه الاخر بربريا وثانويا ليتأكد موقع الذات فهي المقدمة، ولتتطهر فليست هي مستعمرة او غازية وانما محررة ومبشرة.

ولكن ما علاقة تصورات ادوارد سعيد السابقة بسيرته (خارج المكان)؟ ولد ادوارد سعيد في القدس ولكنه انتقل الى مصر مع عائلته التي تنتمي الى الطبقة المتوسطة وتنتمي عائلته الى المجتمع العربي على الرغم من ان اباه قد خدم في الجيش الاميركي وحصل على الجنسية الاميركية وعاد بها ليتزوج ويستقر في مصر. ومعنى ان اسرة سعيد تنتمي الى الطبقة المتوسطة والى المجتمع العربي انها كانت الوريثة لقيم الثقافة العربية التقليدية والحارسة لها وهي قيم تؤكد المتابعة والتشذيب والقياس على سلوك الاب المطابق للسلوك الذي يحسن ان يتعلمه الابن ويلتزم به. وهو ما يعبر عنه سعيد بقوله: (ان كل شيء يجب حشره في قوالب معدة سلفا يفضلها ابي وتتجسد في اقواله المأثورة) (٢٠٨)×.

وابواه يثقفانه ليكون ادورد(هم) وليجد في طبيعته وفي سلوكه المخالف لسلوك الاب عيبا وضعفا ونقصا فوالده (لم يبك مرة ولا يتحدث عن المشاعر التي لابد انها كانت تنتابه في اللحظات الحرجة) (١٥٥) ولذا يقول هو عن نفسه: (ولما كنت اعتقد ان سخاء دمعتي هو في عداد مثالبي الكثيرة، فقد اعتبرت فعلة ابي مظهر قوة يحسد عليها) (١٥٥).

وكانت امه امتدادا لسطوة ابيه ولقوته فهي تذكره بانه عاجز عن ان يكون كأبيه رجل اعمال ناجحا(٢١٠) وهي تلاحقه بعينيها وتحصي عليه تصرفاته فيتمنى ان ينجو من تحديقتها المسيطرة(٢٢٣) قليلا. ويفعل مدرسوه الشيء نفسه فهم يؤكدون اراء اهله فيه وتعليقاتهم على افعاله، (وكان مصدر القوة فيما قالته ورددته وهي تقيم اداءه وسلوكه في انها جمعت كل الملاحظات السلبية والنقدية المحيطة بي.. وركزتها في حاوية فولاذية مقيتة وكبستني فيها كسبا) (١٢١) وهو ما يفعله اهله فهم يحاصرونه ويريدون ان تتحد سلوكياته في قالب محدد مرفوض ومكروه. انه يشعر بعد هذا انه بلا تاريخ يقيه حكم مدرسته فهو حكم مطابق لما يعرفه اهله ويؤكدون عليه ويعرفونه له من تاريخ

الان لم يعد في مستطاعي استظهار تلك الذات اذ تواجهني ذات وحيدة لا مناص منها، منقوصة بل محكوم عليها الاخفاق لا تستقيم مرة، بل انها بالتاكيد شاذة وفي غير مكانها

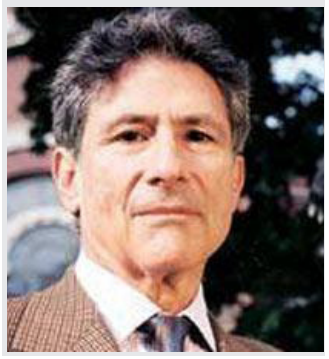

وسيؤدي ذلك الى ان يضيع(ادوارد) الحقيقي الموجود في داخله. يقول:(على ان الافدح وقعا من ذلك الفضح... هو خشيتي الدائمة بل كرهي، لإعلان الاخبار المسيئة على نحو مباغت بما لا يتيح لي الرد عليها والتمييز بين (ادوارد) في جماع اعاقاته وخطاياه المعروفة، وبين الكائن الجواني الذي اعتبره ذاتي الحقيقية والفضلى) (١٢١) واذا اجمعت اراء والديه ومعلميه على انه ادوارد(هم) فمن الصعب ان يظهر ادوارد(ه) او ذاته الجوانية.

يقول:(والان لم يعد في مستطاعي استظهار تلك الذات اذ تواجهني ذات وحيدة لا مناص منها، منقوصة بل محكوم عليها الاخفاق لا تستقيم مرة، بل انها بالتاكيد شاذة وفي غير مكانها) (١٢١) وستصير هذه الذات هويته التي لا يملك بديلا عنها. لقد كانت نظرة أبيه تقيمه وتمنحه هويته وتحكم عليه فيضطر الى القبول بها لانها صادرة من المجموع وهي تطالبه من الخارج فتنظر الى ما يبرز او يشذ سواء كان سلوكا ام مظهرا فما ابعد مشيته عن التوازن وجسده عن التناسق كما يقول ولذا كان يشعر بان جسده خائف(دائما من الانكشاف والفشل) (٢٣٤) في مراهقته ولذا كان مكبلا فيما بعد بالشكوك والارتيابات بصدد جسده (وهي شكوك زرعها فيه ابوه) (٣٩)

يواجه ادوارد مشكلة انه مقسم بين تلك النظرة الحادة المؤثرة وثقافته التي كانت تتصل بالغرب فقد درس في مدارس انكليزية في القاهرة وتذوق الموسيقى الكلاسيكية وعرفها كما تذوق الاوبرا والمسرح وغيرها من الفنون التي تتصل بثقافة الآخر الغربي. ولذا كان متمسكا بهويته الاخرى او ذاته الجوانية التي كانت تتصل بذاكرته القوية وهي تمكنه من ان يستعيد بصريا مقاطع كاملة من كتب متخيلة وكانت تلك الذاكرة (تتغذى لا من ادوارد الذي يسهم في انتاجه اهلي والمعلمون والملهمون الفكريون وانما تتغذى من ذاتي الجوانية الاقل طواعية، ذاتي السرية التي تستطيع ان تقرأ وان تفكر بل وان تكتب باستقلال عن"ادوارد") (٢٨٠) وسيمهد هذا التعامل مع الذات الجوانية الى بروز الهوية في مرحلة لاحقة حيث بدأت تتشكل ارادة مستعادة لاعلاقة لها بـ(ادورد) السابق، (وانما هي ارادة تتكئ الى الهوية المتكونة ببطء، ارادتي الاخرى، ذاتي الجوانية) (٢٨٥).

ولكن هل كان لهذه الذات الجوانية ان تقاوم وان تظهر وتتضح لولا وجود الاب والآخر اللذين يصنعان القوالب الخارجية ويدافعان عن الذات التي يريدون ان تمثلهم؟ يجيب ادوارد بالصياغة الاتية: (فيما ذاتي الاخرى المستترة والمخبأة تتحين فرصتها وهي تبحث عن مسارات لا يطاولها حضور ابي المهيمن غير اني ادركت ايضا ان قوته ومجرد حضوره على ما اورثاني من ازعاج قد وفرا لي بنية جوانية متماسكة في عالم من التقلبات والاضطرابات) (٣٢١).

هل يقدم ادوارد الجواب على اشتغاله في الاستشراق وفي الثقافة والامبريالية وفي غيرها من الكتب والدراسات؟

نعم.. سيتطور الصراع بين ذات جوانية تتمتع بخصوصية وبكون ثقافي يميزها وذات خارجية مفروضة عليها وملونة باراء واحكام الآخر وهي ذات تصنع صنعا لتبين تفوق الآخر في السلوك وفي الكلام وفي التفكير. انه الشيء نفسه الذي يفعله الغرب مع الشرق في مستوى اكبر اذ هو يصنعه ويمنحه صفاته ويقيم من خلال ذلك تصوراته عن نفسه بوصفه مركزا ومقدما.

يسعى ادوارد في كتاباته الى فضح سطوة الآخر والى كشف آليات تلك السطوة والتنبيه اليها اذ ان التنبيه اليها سيؤدي الى التخلص من احساس الذات بانها ما يصنعه الآخر نفسه ولا شيء غيره فينتهي بها الامر إلى التسليم بقوة الاخر وبتفوقه من دون ان تدري انه صانع صورتها عن نفسها وصانع صورته عن نفسه. واذا تخلصت الذات من الصورة المصنوعة استطاعت العودة الى ذاتها التي يسميها ادوارد الجوانية واستطاعت ان تقدم صورتها الحقيقة التي تميزها عن غيرها من دون ان تكون ثانوية بالنسبة الى الآخر.

× الاقتباسات جميعها من كتاب: خارج المكان، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الاداب-بيروت، ط ١/ ٢٠٠٠.

إدوارد سعيد وتحية كاريوكا

كانت نبيهة لطفي مخرجة الأفلام التسجيلية المعروفة، هي التي جمعت إدوارد سعيد والراقصة المصرية نبوية محمد كريم المعروفة بتحية كاريوكا في شقتها بالدقي، وهي الشقة التي شهدت الفصل الأخير من حياة الراقصة المصرية ومن أحداثها الصاخبة المتقلبة، كان ذلك أواخر الثمانينات عندما زار إدوارد سعيد القاهرة بدعوة من فريال جبوري غزول لإلقاء محاضرة في الجامعة الأميركية، فانطلق من أوتيل هيلتون الذي كان يقطن فيه مع نبيهة لطفي إلى مركز الثقافة السينمائية الكائن وسط البلد لجمع مواد توثيقية وإرشيفية عنها،

علي بدر

ثم ذهب إلى مركز جمال الليثي لشراء أفلامها السينمائية وعروض رقصاتها، ليكون أكثر إلماما بحياتها ومشروعها، ولم يكن سبب هذا اللقاء في واقع الأمر هو استعادة شبابه المبكر أو تذكر أيام القاهرة الكولنيالية التي قطنها فيما مضى، إنما كان يبغي تصوير فيلم وثائقي عن حياته وتطورات مشروعه الثقافي والسياسي، وأراد أن يبتدئ به من مدينة القاهرة، ومن لحظة تعرفه أول مرة على تحية كاريوكا وهي ترقص في كازينو بديعة مصابني بوصفها واحدة من الشخصيات التي أثرت في مراهقته تأثيرا كاملا.

كان لقاؤهما الحاسم صاخبا إلى حد ما، المعجب القديم والمفكر الذي أصبحه فيما بعد، والراقصة المصرية التي كانت نموذجا إيروسيا مكرسا من الناحية الثقافية والسياسية والاجتماعية، وإن وجدها بعد أكثر من ثلاثين عاما امرأة مترهلة تضع إيشاربا على رأسها بعد حجها وتكريس حياتها للتقوى الدينية الورعة، إلا أنه كان مستمتعا جدا بلقائها ومشغوفا بأحداث حياتها، وزيجاتها، ومواقفها السياسية، وقد اعترف لها صراحة بأنه وجدها على الرغم من كبر سنها وبدانتها أجمل بكثير مما كان قد تصورها قبل أن يراها، غير أن التصوير لم يتم، ذلك لأن إدوارد سعيد بعد أن سافر إلى أميركا أصيبت تحية كاريوكا بنوبة قلبية، لم تمهلها طويلا فتوفيت دون أن يتم مراد إدوارد سعيد، وبدلا من هذا كتب نصه الرائع عنها، النص الذي مسح ببلاغته العذبة مرحلة كاملة من الثقافة الشعبية في مصر.

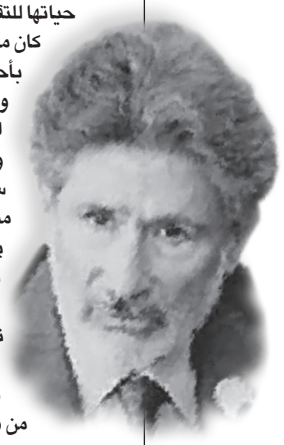

عوامل حاسمة في النظرية الثقافية

ثلاثة عوامل نظرية حاسمة من وجهة نظري أدت إلى كتابة إدوارد سعيد مقالته الرائعة عن الراقصة المصرية (بدوية محمد كريم) المعروفة بتحية كاريوكا، أولا: بروز دراسات البوب آرتس والثقافة الشعبية وأبحاث الفن الشعبي العفوي والمجاني كفرع من فروع تيار ما بعد الحداثة، والثاني بروز تيار ما بعد الكولنيالية في دراسة بولطقيا الجسد حيث يكون جسد تحية كاريوكا هو السطح الذي تنقش عليه الأحداث التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية نفسها، والثالث هو الاهتمام الذي أولته النظرية النقدية المعاصرة للكيانات المقموعة والمهمشة من الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، مثل النساء، الزنوج، الفقراء، الأقليات الدينية والعرقية والأثنية..وإن لم تكن هذه التيارات الثلاثة بعيدة نسبيا عن اهتمام سعيد في كتاباته المبكرة، إلا أن هذه المقالة جاءت صادمة وعلى نحو غير متوقع في مسار سعيد، لا لأنها تعكس اهتماما ميثادولوجيا جديدا لإدوارد سعيد في فترة حاسمة من تطوره الفكري والنقدي حسب، إنما لأنها تهدم وبشكل كامل الفوارق الهرمية في التراتب العنيف بين ثقافة مثقفة وثقافة مهمشة، بين ثقافة رسمية متعالية وثقافة ثانوية مهملة، بين ثقافة مكرسة من الناحية السياسية والاجتماعية والأخلاقية وثقافة مهملة، بين ثقافة مفكر بها وثقافة لا مفكر بها، بين ثقافة معلن عنها و ثقافة مسكوت عنها، بين ثقافة أساسية وثقافة ثانوية وهامشية، بين ثقافة متعارف عليها وثقافة مخبأة وسرية ومتستر عليها، غير أن هذه الثقافة الخفية هي ثقافة موجودة وكائنة وفاعلة ومحرضة وباعثة ومتغلغلة ومتشربة، بل هي ثقافة كاسحة.

إن مقالة سعيد تؤكد على الترابط بين النصوص وبين الوقائع الوجودية للحياة، تؤكد على العلاقة بين النصوص والكيانات البشرية والسياسة والمجتمعات والأحداث، إن الوقائع المتعلقة بالسلطة تتشكل في إطار وقائع ثقافية وفنية واجتماعية متنوعة، تبتدئ من الفرمان وتنتهي بالرقص، إنه خطاب يتعلق بضروب المقاومة التي يبديها الرجال والنساء والحركات الاجتماعية والسلطات والمعتقدات التقليدية، وهذه هي التي تجعل من الراقصة نصا، وحضور الوقائع السياسية في الفن أمرا ممكنا.

كان إدوارد سعيد يدرك أن دور تحية كاريوكا هو نوع من النصية التي ما من سبيل قط إلى تجاوزها، هي نص ما من سبيل على الإطلاق لعبوره وإهماله وإخفائه، أو التنكر له ومجافاته والتحايل عليه، إنها نص كامل ومنجز في الإطار النصي- الثقافي الذي يحرك ميدانا كاملا من الأفكار والعلاقات ويبرزها في إطار خطابي متجانس من التاريخ الثقافي العربي في الحقبة الأولى من تشكل المدينة العربية وتأسيسها على أساس كولنيالي، إنها منجز مكتمل تم تحققه من خلال بنية خطابية متكاملة من علاقات اجتماعية وثقافية وسياسية وتاريخية وأدبية وإثنية، إنها نص يمكن دراسته وتحليله ابتغاء الوصول إلى وعي التاريخ "الحقيقي" في تلك المرحلة المهمة من الحياة الاجتماعية والسوسيوثقافية المصرية، إنها نص يمكن ترحيله وتقديمه في إطار علائقي أي دراسة شبكة العلاقات الثقافية التي تتحكم بمرحلة معينة من مراحل التاريخ، وهكذا استطاع إدوارد سعيد لا أن يكتب مقالة ثرية وبليغة وصاخبة عن راقصة مصرية عاشت في منتصف القرن الماضي حسب، إنما استطاع أن يمسح ببراعته الفذة مرحلة تحية كاريوكا التي تتوجت في بروز الفن في الحياة الاجتماعية والسياسية قبل الثورة وبعدها، في قصر عابدين أيام الملك فؤاد أو في مرحلة العسكر، أيام الثورة أو أيام الانفتاح، وقد دفع إدوارد سعيد مقالته بعيدا لتشكل نقطة الجذب الحقيقية في دراسة الثقافة الشعبية.

لقد طرح إدوارد سعيد في مقالته طقما متماسكا من الأفكار ومن الصياغات ومن الرؤى والأفكار التي ألفها من تاريخ تحية كاريوكا ومن حياتها ومن فنها ومن براعتها في أداءات متوازية، أداءات مترافقة ومتوافقة ومتطابقة مع بعضها البعض، أولا: الأداء الفني في الرقص الشرقي وقد برعت به تحية كاريوكا براعة تامة، برعت في إحداث الأثر الفني عبر تقشفها في الحركة، واحترافيتها في الجذب والإغواء عبر استخدام نظام استطيقي عفوي منفذ ببراعة في الانتقال من حركة إلى حركة أخرى، وبناء سلسلة مترابطة من الموتيفات المتكررة للإيحاء الفني بعيدا عن التصريح العلني، أو الإعلان الفضائحي للجسد على نحو متعمد، إنما بحركة مفترضة وإيحائية ثابتة، حيث تبقى تحية على نحو متواصل ذات طاقة كلاسيكية مهيبة، ملموسة وافتراضية، قريبة ونائية، ممنوحة لكنها لا تطال، ثانيا: الأداء الثقافي المتوافق مع الإبداع الفني، وهو الوعي الأنثوي القادم من لياقة اجتماعية محلية موروثة عن نظام خاص بالتاريخ الثقافي الشعبي العربي، وقد عده سعيد واحدا من مكملات الثقافة الشعبية في هذه المنطقة، ومن مكملات الهوية الوطنية، ومعبرا عن التواتر الاتساقي في الموروث الشعبي لشخصية العالمة القادمة من التاريخ العربي الإسلامي ولا سيما إبان العصر الذهبي للإمبراطورية العباسية وابتداء من شخصية الجارية تودد في ألف ليلة وليلة، وأخيرا: الأداء السياسي، حيث حولت تحية كاريوكا قدرتها على الجذب والإغواء إلى ناظم وضابط سياسي تتحكم به في دفع الروح الوطنية والقومية للجماهير، واستخدمت شخصيتها الفنية الاعتبارية في إبداء الرأي والتظاهر والاحتجاج والاعتصام والرد، والوقوف إلى جانب التيار السياسي اليساري في الخمسينات، ومع سياسة الانفتاح في السبعينيات عن طريق مسرحيتها الشهيرة يحيا الوفد وقد شاهدها إدوارد سعيد في العام ١٩٧٥ في سينما ميامي في القاهرة، وعبر عن اشمئزازه منها لموالاتها إبان ذاك السياسة الساداتية المعادية للالتزامات العالمثالثية التي طبعت تاريخ مصر، لكن هذا لم يمح دورها الثقا-سياسي في مساندة اليسار المصري، وانتمائها إلى عصبة السلام، والدور المهم والأساس الذي لعبته مع فايز حلاوة في تأسيس الكابريه السياسي...كانت حياتها عاصفة بحق وحقيقة وقد أذهلته بالمعلومات التي قدمتها له عن نفسها:

لقد عرف إدوارد سعيد من ذلك اللقاء النادر أن اسمها بدوية محمد كريم، كانت آخر طفلة لمحمد النيداني وهو شخص سعودي تزوج سبع نساء آخرهن والدتها، أما تحية فهي الابنة الوحيدة لهذه المرأة التي لم تكن مصرية أيضا، وقد تركها والدها عند جدتها لتربيتها وتعليمها بيد أن أخاها أرادها أن تعمل في خدمة زوجته المالطية، فهربت من منزله، ركبت القطار قاصدة القاهرة وهي في الخامسة عشرة من عمرها، بعد أن تطوع بعض الركاب بدفع ثمن تذكرتها، والتحقت بسعاد محسن التي كانت تزورهم في الإسماعيلية لإحياء الحفلات، و قد عملت عندها في صالة "بيجوبالاس" بمرتب شهري بلغ ثلاثة جنيهات في فرقة كومبارس، ثم ذهبت مباشرة إلى واكيم الذي قدمها إلى بديعة مصابني ملكة الليل والمسارح آنذاك." و قد اختارت لها بديعة مصابني اسمها الفني تحية، أما لقب كاريوكا فجاء بعد سنتين من العمل، عندما شاهدت فيلما قدمت خلاله رقصة جديدة مستوحاة من موسيقى برازيلية اسمها كاريوكا، أعجبها الاسم وقدمت الرقصة في إحدى وصلاتها، فأثارت إعجاب الرواد وأصبح اسمها تحية كاريوكا، لقد كانت أبرع راقصات زمانها فقد تعلمت رقصة "الكلاكيت" عند الفنان روجيه، والرقص الشرقي من حورية محمد، والصاجات من نوسة والدة الراقصة نبوية مصطفى، وتزوجت أكثر من ١٢ مرة، الأول هو انطوان عيسى، ثم المليونير محمد سلطان، ثم ضابط أمريكي يدعى جلبرت ليفي الذي سافرت معه إلى الولايات المتحدة وهي تحلم بهوليوود، وفي الخمسينات اشتركت بفيلم أميركي غير أن منتجه تخوف من إشراك عربية فيه وإغضاب اليهود، عادت بعد ذلك إلى مصر لتتزوج بعد طلاقها من الأمريكي مصطفى حمزة صاحب إحدى دور العرض السينمائي، ثم تزوجت المخرج فطين عبد الوهاب، ثم الطبيب حسن حسني، وكان النجم رشدي أباظة أبرز الرجال الذين أحبتهم وعاشت ثلاث سنوات في عصمته، قبل أن تتزوج المطرب محرم فؤاد، فالموسيقار محمد سلطان، ثم الرياضي عبد الله الخادم، وأحمد ذو الفقار صبير، وطيار الملك فؤاد حسن عاكف، و الصاغ مصطفي كمال صدقي، وأخيراً فايز حلاوة أطول زيجاتها حيث دام زواجها من حلاوة مدة ٢٣ عاما ثم طلقها بعد ذلك واستولى على ثروتها وطردها من الشقة الزوجية بعد سنوات من الشهرة والمجد والصعود، كما قالت ذلك لإدوارد سعيد.

في المنجز الذي حققه ادوارد سعيد، تتعانق العديد من مكونات المعرفة البشرية، لذلك تتنوع المداخل الى عالمه، من هذه المداخل نظرته للسينما، التي اكتشف علاقتها بالامبريالية مثلما اكتشف علاقة الرواية بها.

وادوارد الذي اتجهت جهوده الى ما نعرفه عنه (الاستشراق والامبريالية وثقافتهما تحديداً) ولم يتناول السينما بتوسع على الرغم من قدرته على ذلك كما توضح اراؤه فيها ليس من المعقول ان يكون متفرجاً عادياً، ذلك أن مفكراً مثله يمتلك طاقة هائلة على استيعاب ما حوله وتحليله وتقديم نتائج قل التوصل اليها عند سواه لابد ان تحتدم في اعماقه الرغبة لمحاكمة ما يراه من سرديات بصرية.

فكر ادوارد سعيد والشاشة

السينما والامبريالية وطروحات الاستشراق

يوسف يوسف

قد يظن بعضهم خصوصاً السينمائيين ، أن ادوارد في مثل هذه الحالة يمكنه تقديم رؤية اجتماعية او سياسية او فكرية عامة ولا يمكنه تجاوزها بحكم الاختصاص في حرفة السينما لكنه وكما سنتبين لاحقاً لم يكن كذلك. وصحيح انه في رؤيته للسينما استطاع اكتشاف محتواها الفكري الا انه في الجانب الآخر من هذه النظرة يبدو لنا كما لو انه صاحب اختصاص حتى وان لم يدرس السينما في اكاديمية.

إن الموسيقى الذي هو قادر بالتأكيد علي التناغم مع معزوفات الآخرين السينمائية وفي ذلك فأن خاصية التلقي التي يمتلكها لابد ان تجعل لارائه قيمة كبيرة حتي وان لم يكتب النقد السينمائي بالشكل المتعارف عليه.

لقد ادرك ان السرد السينمائي الذي هو متوالية بصرية لايختلف موقعه في هيكل الامبريالية عن موقع السرد الروائي الذي هو متوالية لغوية ناقشها وحدد مكوناتها وغاياتها ليس كفن منفصل عن الحياة وانما كواحد من مكوناتها التي ظلت شغله الدائم لقد ارانا بعين اليقين كيف نشطت الرواية في خدمةالمستعمرين وكيف اغدقت على افعالهم المضادة له كأنسان يرفض فكرة القرابين التي يتقدس الجلاد بها الكثير من البطولات وهو ايضاً سوف يرينا وضمن المدار ذاته كيف نشطت السينما في خدمتهم، وكيف اغدقت على افعالهم الكثير من البطولات وكيف شوهت صورة الآخرين والي هذا يقول (بمناسبة الحديث عن الاستشراق في السينما):

يرتبط العربي أما بالفسق او بالغدر والخديعة المتعطشة للدم ويظهر متحللا ذا طاقة جنسية مفرطة قديراً دون شك على المكيدة البارعة المراوغة لكنه جوهرياً سادي خؤون منحط تاجر رقيق راكب ابل صراف وغد متعدد الظلال هذه بعض الادوار التقليدية للعربي في السينما.

الحكم على السينما الغربية

ان ادوارد في هذا المقطع يوجز في كلمات قليلة الحكم الذي يصدره على السينما الغربية وهو حكم لم يأت من فراغ وانما بعد مشاهدات عكف عليها ضمن مشروعه الكبير الذي توغل فيه بعيداً في تحليل الثقافة والامبريالية وهو تحليل واسع عميق الدلالة اذ ليس من المعقول أن يصدر شخص بمنزلته الفكرية حكماً بدون تمحيص بالتالي فأن ما يقوله في سطور تعجز كتب عن قوله وهذه احدى مزايا صياغاته اللغوية حيث لا اسراف في القول ولاثرثرة زائدة صحيح أن من بين فضائل هذا القول أن ادوارد يعرفنا بكيفية تعامل السينما الغربية معنا كعرب الا انه اذا ما نظرنا اليه ضمن سياقه العام في البحث عن جرثومة الاستشراق الفتاكة لمكافحتها يرينا بلا شك قدرة المفكر الشمولي على الكشف عن المعارك المستترة التي يعد الاستشراق في السينما ، احدى قنواتها المريبة وهي غابة ليس من السهل تحقيقها لو لم يكن ادوارد يمتلك ترسانة ثقافية هائلة.

وسوى هذا الاتجاه الفكري من نظرة ادوارد للسينما هناك الاتجاه الجمالي الذي يمكن لنا اكتشافه من اطروحاته وهو اتجاه قوي ايضاً، يرتبط بسمو ذائقته الفنية التي تقل رؤيتها عند مفكرين آخرين ممن لهم قامات طويلة مثل قامته وان اشتهروا في ميادين اخرى.

فيلم ظلال الغرب

لنأخذ مثالاً الآراء التي يقولها عند الحديث عن فيلم (ظلال الغرب) المأخوذ عن كتابه (الاستشراق) في الفيلم الذي شهدناه للتو هناك مشهد البداية في القدس : البساط السحري وصور الناس الذين يركضون عبر الصحراء وهو مشهد سهل المنال لأي أحد ان مثل هذا القول الذي قد يبدو عادياً لا يخلو من اشارة الى صدمة التلقي التي تستدعي بدورها الحديث عن بنية اللقطة الواحدة وكذلك عن مجموعة اللقطات التي يتكون المشهد منها وما قصد ادوارد من وصف المشهد بأنه سهل المنال لأي احد الا الاشارة الى اسلوبية المخرج جيوف دنلوب التي تخلو من التعقيد لسنا مدفوعين للنظر الى قول ادوارد كونه مجرد انطباعات عابرة فالمفكر الذي انشغل عقلياً وجسدياً لمدة طويلة من اجل انجاز كتاب الاستشراق لابد انه سيفكر ملياً قبل التصريح برأيه خصوصاً عندما يجمعه الحوار مع رايموند ويليامز (الاقوال الواردة على لسان ادوارد من محاورة جمعت الاثنين بمناسبة عرض الفيلم السابق الذكر وكذلك فيلم الريف والمدينة المأخوذ كذلك عن كتاب ويليامز الذي يحمل الاسم نفسه). وهذا الافتراض علي الرغم من انحيازنا لكل ما انجزه ادوارد لا ينطلق من نزعة عاطفية ونحن فيه نحاول الكشف عن احد المداخل اليه بالوقوف امام نظرته للسينما، وللفيلم الناجح، فأدوارد الذي آمن بنظريته التواصل بين الاقسام المنفصلة وضرورة ان يكمل بعضها البعض الآخر لايحدد قيمته الفيلم من خلال مشهد واحد لكن هذا المشهد عن القدس صورة جيوف دنلوب وطاقمه في حين انني كنت لا استطيع ان اكون هناك)، هنا يقصد الاشارة الى ما يعتور المشهد من خلل وهو ما سيتحدث عنه لاحقاً بصورة تكامل فكرته وقد يبدو أن للعروض حياتها الخاصة لكن عليها دائماً ان تعود الى مرساها في الحقائق التي انتجتها).

هذه نقطة بالغة الاهمية في نقد السينما وهي مما يترتبط في جانب منها بنظرته للسينما الامريكية التي غيبت الكثير من الحقائق وتآمرت على المطلق التاريخي بطريقة قميعة هدفها قتل سرديات الآخرين.

تماسك الفكرة

ومما نلاحظه تماسك الفكرة لدى ادوارد لايرسم حدوداً لها تفضي به الى ان يكون متعسفاً مع غيره من المبدعين وهو الذي حارب العسف بكل جماع قوته.

وعندما نقول ان ادوارد لايقدم رأياً انطباعياً فأننا نعني مانقوله تماماً، من اهم حقوقه علينا الاعتراف بألمعيته الفذة حتى في نظرته للفيلم الوسيط السردي الذي لايجهل دوره في الحياة.

لاينسى ابداً انه يري سردياً مرئياً وهذا هو شكل السينما في راميتها المتفجرة الذي يلاحظه بعين ثاقبة (وعن طريق الموافقة او التزامن اذا شئت فالمشهد التالي الذي ينطفئ هو للصبي الذي يلقى القبض عليه في المدينة هو موافقة او تزامن لكنه يوضح نقطة ان هذه الأمور مترابطة مثل هذا الحديث يدخل في صلب المونتاج وتداعيات البنية البصرية وتراكماتها الفكرية والجمالية المهم في الامر كله ان يوصل المخرج رسالته وهذا ما يشدد عليه(كما ان هناك ايضاً مشكلة الوصول الى هناك الي القدس او منعك من الوصول اليها).

ويقول عن مشهد آخر (والذي يبدو بطريقة معقدة يسيرة المنال وعسيرة المنال معاً ينصهر ويلتحم عن طريق وسيط الفيلم ولايمكن ان يتحقق تجريبياً بالفعل لكنه يمكن ان يتحقق خلال الفلم الذي هو بطبيعة الحال شكل دائم). ان ادوارد وعلى الرغم من ان الحديث بشأن الفيلم بعينه لم يقصد ذلك علي وجه التحديد وغايته الاضافة الى مشروعه الكبير كمفكر تقوده حساسيته المفرطة الى معاينة مختلف الاجناس الابداعية واثراء نظرية المعرفة التي يتقدم بها فالحديث عن المرسي وعن الحقيقة التي تنتج الفلم- اي فيلم- يقود المستوى النظري الي فضح الزيف في الكثير من افلام الامبريالية كما انه يقوي السينما المناوئة لهذه الافلام لان القوة الكامنة في الحقيقة ، اقوى من ان يهزمها اي سرد مهما بلغت قدرته.

متعة المشاهدة

ولعل اشارته الي القدس ولبنان وتوضيح كيفية الوصول اليهما من خلال المشاهدة علي وفق قدرة المخرج اوانعدامها وما يتمخض عن هذه القدرة من متعة ومقارنة بما يراه في السينما الامريكية التي يذكرها بالاسم كان من بين الاسباب التي جعلته يصرح بضرورة الدفاع عن الذات امام قهر الآخر لقد رأي في السينما الامريكية التمركز حول الذات والوطنية بيد ان الجنسية الامريكية التي حصل عليها لم تستطع ان تقتلع منه مشاعره الدفينة انها المشاعر التي تمنعه من التنازل حينما يقول كأمريكي انني لااستطيع في الحقيقة ان اتقبل نفسي كجزء من هذا كله- التمركز العرقي حول الذات الامريكية دون ان انكر الكثيرمن نفسي).

هنا نفهم هدف ادوارد من مطابقة السينمائي بضرورة العودة الي مرسى الحقائق الذي ينتج الفلم مع الاخذ في الحسبان انه لايريد ان ينكر كثيراً من نفيه كفلسطيني وفي هذا يكمن سر ادوارد وشمولية تفكيره وعظمته في كل ما انجزه من ضروب المعرفة وبضمنها معرفته بالسينما ومحاولة التنظير لها.

إدوارد سعيد رؤية نقدية

هادي العلوي

وجدت جولات صراع مع الاستشراق في مواسم متفرقة ، لعل أطولها هي التي خاضها الماركسي حسين مروة في سفر النزعات . ولم يصل العلامة الشهيد مع ذلك إلى حد إعلان الحرب ، ثم القطيعة ، فهذه كانت بانتظار الليبرالي إدوارد سعيد ، الذي انجز مهمة كان على الماركسيين العرب إنجازها دون الليبراليين ، المنتمين عضويا الى الغرب .

ويبدو لي أن حرب إدوارد سعيد على ضراوتها لم تنتج مقابلها الايديولوجي . لقد طبع كتابه بالملعبية مرتين ووزع توزيعا جيدا لكن علاقة المثقف العربي بالاستشراق لم تتزعزع . ويمكنني الزعم أن ادوارد سعيد أخفق في الوصول الى هدفه الكبير .. ويرجع ذلك أولا إلى التقاليد الاستشراقية في الوعي الثقافي العربي وهو لايزال وعيا طرفيا (كولونياليا) يدفع باتجاه الغربة ويتميز بنزوع كوزموبوليتي نحو الغرب . وللاستشراق هيبة في صدور المثقفين العرب يصعب انتزاعها بكتاب مهم بلغت مصداقيته . الثاني يرجع إلى الكتاب نفسه ، وهو عمل علمي ذو اهمية فائقة ويتمتع بمصداقية كبيرة في معظم استنتاجاته .

إلا ان دائرة بحثه كانت ضيقة بسبب اقتصاره على دراسة الاستشراق من خلال غرارات المستشرقين كمتخصصين في تاريخ الشرق . والاستشراق عندما يُؤخذ كظاهرة إيديولوجية لايتحدد بالمستشرقين وأعمالهم ومعاهدهم أو أو اقسامهم المتخصصة في الجامعات بل هو نفس علم التاريخ الغربي القائم على العرقية الأوروـــ مركزية في تناوله لتاريخ العالم . والمنهجية الاستشراقية في هذا النطاق قطاع عمل مكرس مهنيا للشرق ضمن الدائر ة العامة لهذا العمل ، وهي لاتستقل عنه إلا من حيث حقل العمل المتخصص لها . قد يشار هنا الى افراد المستشرقين حينما يتجه بعضهم تحت تأثير معرفي أحادي إلى الكلام خارج المقتضى الأوروومركزي في مفصل كتاباته ، وهو ما يحصل كثيرا لدى المستشرقين الأكثر انغلاقا .إلا أن هذا لايتداخل مع المنهجية العامة لعلم التاريخ بمنحاه الأوروومركزي المسيطر على العقلية الأوربية والغربية عموما . يمكننا الكلام عن خرق كبير حدث هنا على يد ماركس وانجلز وهما فيلسوفان خارجيان بالتمام ، أعني انهما ليسا غربيين . وبحدود ماتنولته اعمالهما الشديدة التفرّغ من قضايا في التاريخ وحدود معلوماته الشحيحة عن الشرق . مثل ماركس وأنجلز الغرار الذي يمكن لمؤرخ أممي ان يتناول به تاريخ الحضارات والشعوب بمنهج علمي نزيه .إلا ان تأثير الفيلسوفين لم يكن من العمق بحيث ينجز القطيعة مع منهج علم التاريخ الغربي . وهذا يصح ليس فقط على عمل المؤرخين البرجوازيين بل على الماركسيين ايضا .

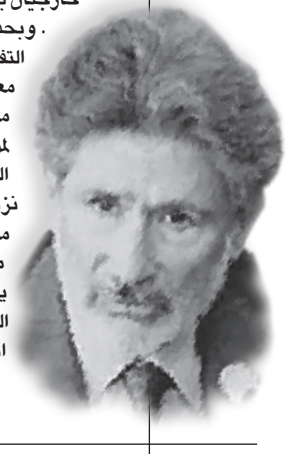

جزء من دراسة عن الاستشراق نشرت في مجلة المدى ٢٠٠٣

أدوارد سعيد: الحوار الأخير

فوزي كريم

حين تُوفي المفكرُ الأميركي الفلسطيني أدوارد سعيد في ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٣، بعد معاناة طويلة من سرطان الدم، كان قد ترك إنجازين أحدهما لم يكتمل. الأولُ حوارٌ طويل مع تشارلس غلاس، في فيلم يتجاوز الساعات الثلاث، صدر على DVD تحت عنوان «أدورد سَعيد: الحوار الأخير»، والثاني كتاب «عن الأسلوب المتأخر» On Late Style، الذي لم يُكمله. استعرتُ الفيلمَ من المكتبة المحلية العامة، واقتنيتُ الكتاب حين صدوره عن دار Bloomsbury، عام ٢٠٠٦. كان الوقت الطويل، الذي صرفته مع حديثه، قصيراً لفيض المتعة، رغم الاستعدادات التي أحاولُها بين الحين والحين، مأخوذاً بالغنى الفكري المحلّق مع الأنفاس المتقطعة والتعب الظاهر، وبالطلاقة التعبيرية التي تصل مراميها بيسر.

كنتُ، وأنا أشاهد وأصغي، أستعيد الأفكار التي انطوى عليها كتابه بشأن «الأسلوب المتأخر»، لأن أسلوب الطرح هنا ينطوي على الخصائص ذاتها التي حدّدها في كتابه حول «الأسلوب المتأخر» هذا، والتي درسها لدى كل من بيتهوفن، شتراوس، موتْسارت، جان جينيه، كفافي. إنه لا يقصد بـ«الأسلوب المتأخر» المفهوم المعهود عند المفكر أو الفنان المُسن. مرحلة المعارف، والحكمةِ التي تَنتج عن الخبرة، والأسى الذي يتولد عن الحكمة، والتمكن من الحرفة، والتلميحِ إلى ما وراء القدرة على الفهم. إنّ سعيد يعني، على العكس، تمثُّل كل ما هو متصلّب، صعب، ومتعارض لا حلّ له.

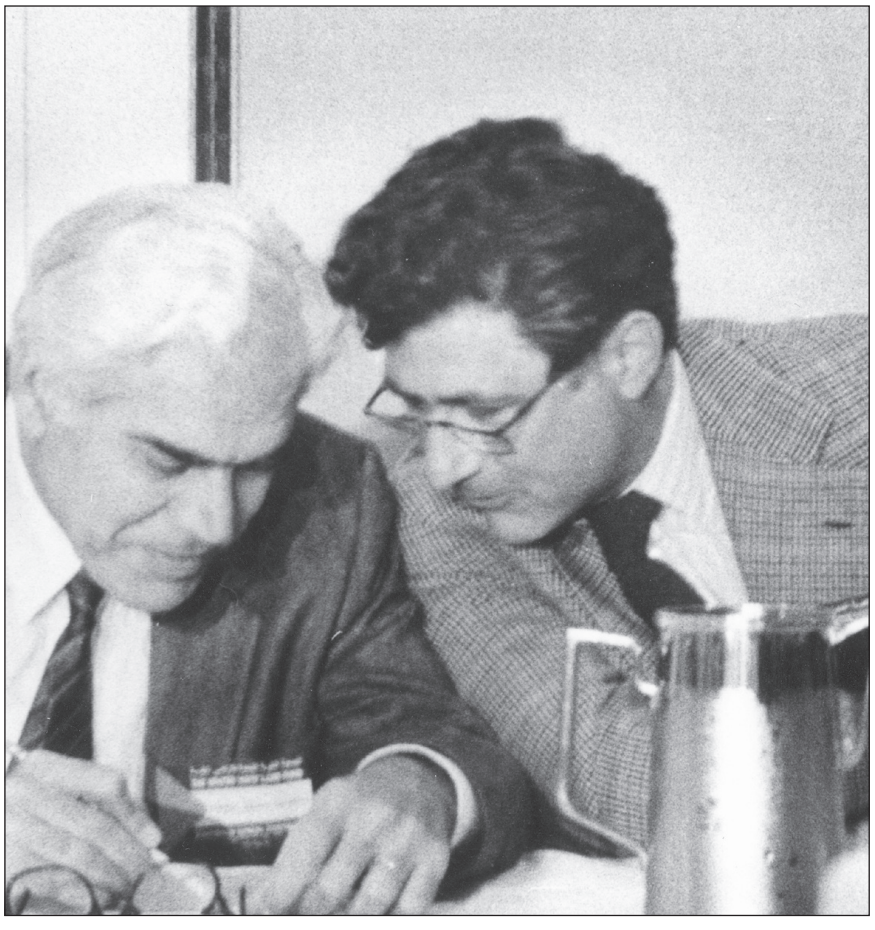

رأيتُه في الحوار داخل معترك الأزمات المستعصية التي يخوض الصراعَ معها دون أمل بحل: فلسطين، العرب، اللغة، الموسيقى. رأيتُه مثل أبطال كتابه: بيتهوفن الذي يحتدمُ داخلَ الصدوع والتشظيات المستعصية في أعماله الأخيرة، والتي فصلته عن موسيقى حاضره، رغم قدرته الأسلوبية الفائقة على التحكم. ريتشارد شتراوس الذي هجر مناخ ألمانيا الجحيمي ولجأ إلى موسيقى القرنِ الثامن عشر. الشاعر كفافي الذي أبى إلا التعامل مع مرحلة الحضارة اليونانية. العازف غلين غولد الذي امتنع عن العزف أمام الجمهور، وفضّل العزف داخل استوديو التسجيل. إنهم يشبهون أوشنباخ بطل توماس مان، في روايته القصيرة «موت في البندقية». كائناتٌ مَغيب، هجرتْ عالَمها وعانقت منفاها، على حدّ قول أدورد نفسه. ولعل حالةَ المنفى هذه تُشكّل محوراً مركزيا في وجوده كله، كما شكّلت محوراً في حواره الطويل.

ولكن هناك أكثر من محور في حديث سعيد. محور فلسطين هو الأبرز، إذ يستغرق أكثر من نصف الحوار: ولادته، ثم هجرة العائلة إلى أميركا، الحياة في القاهرة، الدراسة في أميركا، الانشغال الفعلي داخل حركة فتح، الخلاف مع عرفات، منع كتبه في فلسطين لا في إسرائيل، رفضه لأوسلو، ثم مرضه، وانسحابه من المعترك. ويليه محورُ أطروحته المثيرة بشأن الاستشراق. وكيف أن سوء الفهم لم يحدث بين الكثير من الغربيين فقط، بل حدث بين الكثير من الشرقيين، الإسلاميين والمثقفين العرب، أيضاً.

حين تُرجم الكتابُ إلى العربية كان الاحتفاءُ به مثيراً، ولكنه احتفاءُ الكائنات التي تنطوي على جاهزية العداء للغرب، وجاهزية الريبة الواهمة من الأصابع الخفية، وجاهزية الوهم بأن العربَ والإسلام مُستهدفان في كل فعل غربي، حتى لو كان هذا الفعل في حقل العلم. وهاهو كاتب يخرج من رحم الثقافة الغربية، كما يرون، ليفضح مؤامرة الاستشراق!.

أدوارد سعيد يتحدث عن انزعاجه من سوء الطوية هذه، فهو لم يتعرض بالشك مطلقاً لمسعى كثير من المستشرقين، ولم يربط مطلقاً بين السعي إلى المعرفة Knowledge في هذا الإستشراق، وبين السعي إلى القوة والهيمنة Power.

والغريب أن الحوار لم ينصرف للموسيقى، التي تشكل محوراً أساساً في حياة أدورد الروحية والفكرية، مع أن كتابه الأخير «عن الأسلوب المتأخر» في جملته كتاب موسيقي، ونشاطه في حياته ونتاجه لا يبتعد كثيراً عن الحقل الموسيقي، فهو عازف بيانو ممتاز، ولقد اكتشف سحر هذا الحقل منذ السادسة من عمره، قبل أن يكتشف سحر القراءة والكتابة!.

إدوارد سعيد.. رجل من عصرنا

فاضل السلطاني

من اين تنبع قيمة الراحل الكبير ادوارد سعيد، نعتقد انها تنبع من المصدر نفسه الذي غذى الاسهامات الكبرى في تاريخنا الحديث، الحفر في اعماق الشخصية الانسانية في المكان والزمان، في المكان الذي كان يتنقل مع ادوارد سعيد من القدس حتى القاهرة الى كولومبيا، والزمان الذي فلت من بين يديه حين غادر تلك السماء الاولى، واخذ يهدده منذ منتصف التسعينات ممثلا بالمرض الرهيب.

لكن صاحب "تأملات في المنفى"، استطاع، مثلما استطاع غيره من الشخصيات الكبيرة، وهذا سر كبرها ايضا، ان يسيطر على العنصرين سيطرة ذهنية عبر التأمل وسبر اغوارهما في اعمال تنتمي الى التاريخ كله، اكثر من انتمائها الى مكان وزمان معينين.

ولم يكن سفره الكبير "الاستشراق" مهما اختلف المرء مع بعض طروحاته، بعيدا عن هذا المعنى، ولم يكن "خارج المكان" سوى تأمل عميق في معنى هذا المكان للسيطرة عليه، واستخراج مغزى منه هو مغزى شخصياتنا ووجودنا.

من هنا كان سعيد، في الوقت نفسه، منفيا ابديا، مثله مثل جوزيف كونراد. وقاده الاحساس المعذب بنفيه الى البحث الدائب عن شخصيته الحقيقية التي قسمت، بشكل لا انساني، بين "هنا" و"هناك"، مثلما قسمت شخصية الوطن الى قسمين.

يروي لنا في "خارج المكان" بأنه لجأ الى الاطباء النفسيين في مرحلة مبكرة من حياته ليعرف اين تكمن شخصيته الحقيقية، واين يختفي مكانه.

ومع ذلك، استطاع سعيد امتلاك الاثنين فيما بعد امتلاكا ذهنيا، اتاح له انتاج كتاباته وتأملاته الخلاقة، والقى به في محيط انساني فسيح، فضاؤه وجغرافيته هما الانسان. ولا بد ان يقود كل ذلك الى موقف نقدي لا تحركه، غالبا، الاهواء. وهكذا كان ناقدا لاذعا لما يجري في ارضه الاولى فلسطين، بالحدة نفسها التي كان فيها ناقدا لما يجري في وطنه المتبنى: اميركا. وهذه الحدة سببت له مشاكل كثيرة في الحالتين الفلسطينية والاميركية، لكنها كانت ربما سلاحه، فهو لم يستطع ان يكون ناقدا اكاديميا يطل على المشهد الساخن من فوق بأدوات المحلل المجردة، بل كان في قلب هذا المشهد روحيا وجزءاً منه وضحية له ايضا. ومع ذلك، كان خارجه ايضا ذهنيا، مما اتاح له رؤية مبكرة لما كان يحصل وسيحصل وخاصة في الساحة الفلسطينية، ومن هنا، كان افتراقه عن سياسات القيادة الفلسطينية، واشهاره هذا الافتراق على رؤوس الملأ.

وفكريا، كان الجوهر نفسه وراء اعماله التي شغلت الغرب اكثر ما شغلت الشرق، ليس على المستوى الاكاديمي فقط، وانما على المستوى الشعبي ايضا. واعتقد ان الشعبية التي يتمتع بها هنا في لندن، تفوق شعبيته في اي مكان عربي آخر. فما ان يعلن عن اشتراكه في ندوة او محاضرة، حتى تنفد التذاكر قبل فترة طويلة. وليس سهلا بالطبع ان يعرف مثقف موسوعي مثل ادوارد سعيد ان يصل الى اكبر عدد من الجمهور. ولكن ليس من الصعب ان نعرف سر ذلك: ان القضايا التي تشغله هي القضايا نفسها التي تشغلنا جميعنا: مكاننا في هذه الارض وعذاباتنا المشتركة كبشر، ومصائرنا الغامضة في كون يمزق نفسه بنفسه، ويقتلع أبناءه مكانا وزمانا.

في المكان الخطأ .. مذكرات حميمية عن عالم ضائع منسي دونه المفكر الفلسطيني ادورد سعيد .. الكتاب سيرة ذاتيه لخلجاتنفس صادقة اراد من خلالها الكاتب تصوير جزئيات حياته بكل دقة وامانة ، بالنظر لما تخللها من ترحال وسفر ومنفى واغتراب متنقلا من القدس الى القاهرة وهو طفل ومن ثم الى لبنان والاولايات المتحدة الامريكية يحمل في ذاكرته صور اصدقاء ومعارف وزملاء .. يفتتح ادوارد سعيد مذكراته بالعبارات التالية :

ادورد سعيد.. الحنين الى المكان الخطأ

علي حسين

في كل العائلات يصنع الاطفال ويبتدع الاباء ، ولكل قصته وشخصيته ولغته ، وكيف وجدت في عالم الوالدين وكيف تاقلمت مع اخوتي الاربعة ، وقد امضيت الجزء الاكبر من الفترة المبكرة من حياتي وانا لا اعرف ماذ اذا كان هذا الخطأ يعود الى اخفاقي المستمر في قراءة دوري المحدد داخل هذا السياق، ام يرجع الى عيب دفين في تكويني، فاحيانا ما كان يصيبني العناد واغدو فخورا بعنادي هذا، ولحظات اخرى كنت ابدو لنفسي مثالا لانعدام الارادة والشخصية وفي كل الاحوال فان الشعور الطاغي الذي كان يتملكني دائما هو ان شيئا ما ينقصني ويدفع بي خارج المكان وهكذا انقضت من عمري خمسون عاما قبل ان اعتاد على اسم (ادوارد).. ذلك الاسم الانكليزي السخيف الذي تم اقحامه عنوة على اسم عائلتي العربي الواضح.

ويمضي ادوارد سعيد في هذا الفصل ، يستعرض اصله وتاريخه العائلي فنتعرف على ابويه وجدوده بل واخت جدته التي امضت حياتها في التدريس وسط العبئات التبشيرية بالقاهرة، والتي لعبت دورا هاما في حياة عائلة ادوارد سعيد الصغيرة فهذه السيدة هي التي اتت بأم ادوارد سعيد (هيلدا ابنة اختها) من فلسطين في اوائل الثلاثينيات لتزفها الى والده (وديع) رجل الاعمال الفلسطيني الاصل، الامركي الجنسية والمقيم بالقاهرة منذ العشرينيات انه عالم الاقليات (الشامية) بحسب التعبير المصري الشائع عالم الانعزال عن المصريين ومحاولات الارتباط بالغربيين، ينتصب امامنا بسحره الخاص وحزنه الشفيف في هذا الفصل الاستعادي يحدثنا ادوار سعيد عن هذا العالم فيقول:

تدرجت هوية (ادوارد) من كونه ابنا (لوالديه) في المقام الاول ليصبح بعد ذلك اخا لاخواته البنات ثم اخيرا ذلك الصبي الذي ارسلوا به الى المدرسة ليظل يحاول من دون جدوى التزام القواعد المطلوبة. والصورة التي تم ابتكار ادوارد على شاكلتها كانت ضرورية بالنسبة لابويه اللذين ابتكرا لنفسيهما صورة خاصة التقطت من هنا ومن هناك وفقا لظروفهما الخاصة فهما كانا مختلفين بشدة في النشأة والمزاج وان جمعتهما الجنسية الفلسطينية وكانا غريبين يعيشان في قاهرة عهود الاستعمار ويمارسان حياة اقلية مسيحية بروتستانتية تتواجد داخل بحيرة اوسع من الاقليات المختلفة كانا وحيدين بلا سند سوى ما يقدمه كلاهما للاخر، اما اطارهما المرجعي فقد كان مزيجا من العادات الفلسطينية السائدة قبل الحرب العالمية وبعض الافكار الجذابة عن الحياة الامريكية المستقاة من المجلات والكتب ومن السنوات العشر التي امضاها ابي في الولايات المتحدة هذا بجانب اثر الارساليات التبشيرية عليهما، وما تبقى من سنوات الدراسة غير المكتملة واخيرا اثر النزعات البريطانية الاستعمارية السائدة آنذاك، وانماط الحياة المحيطة في مصر، ومحاولتهما ملاءمة بعض هذه الانماط وفقا لظروفهما الخاصة، فهل كان يمكن بعد كل هذا ان يشعر ادوارد بأي شيء آخر سوى ذلك الاحساس الملح بأن شيئا ما ينقصه ويدفع به خارج المكان.

بعد التعرف على الملامح الشخصية لادوارد سعيد في الفصل الاول تمضي بنا الفصول التالية من المذكرات متنقلة ما بين القاهرة باحيائها الغنية ومدارسها الاجنبية التي نشأ فيها ادوارد سعيد وتعلم حتى سن السادسة عشرة والعديد من المدن الفلسطينية التي اعتاد اهله زيارتها في الجازات الصيف الطويلة، وبالذات مدينة القدس التي ولد فيها عام ١٩٣٥ حتى نصل الى الفصل السادس وهو اطول فصول الكتاب، واكثرها مباشرة في تناول القضية الفلسطينية بحيث يمكن اعتباره واسطة العقد بين الجزء السابق له الجزء اللاحق.

يبدأ الفصل السادس من المذكرات وادوارد الصبي يحتفل بعيد ميلاده الثاني عشر في منزل العائلة بالقدس عام ١٩٤٧، وابناء عمومته الاكبر منه يحدثونه عن شؤم تاريخ ميلاده، الذي يواكب نفس تاريخ ذكرى وعد بلفور، ولاننا كنا قد تركنا ادوارد الصبي في نهاية الفصل الخامس ينعم بحياة الاقليات المترفة في قاهرة مابعد الحرب العالمية الثانية، يرتاد هو وعائلته السينمات والمسارح، وبخاصة دار الاوبرا المصرية حيث يتعرف ادوارد على ما سيغدو لاحقا حبه المقيم (الموسيقى الكلاسيكية الغربية بشكل عام والاوبرا بشكل خاص) فان الحديث عن وعد بلفور في بداية الفصل السادس يجيء بمثابة الصدمة التي تنقلنا الى عالم بعيد تماما عن براءة العالم الذي تتناوله المذكرات في المائة صفحة الاولى.

ونحن لا نعرف بالتفصيل لماذا انتقلت عائلة سعيد الصغيرة الى القدس مع مطلع عام ١٩٤٧، ولا لماذا بقيت بعيدا عن القاهرة هذه الفترة الطويلة التي اضطرت معها الى الحاق ادوارد الصبي بمدرسة القدس وعدم الاستطراد في مثل هذه التفاصيل يخدم الهدف العام من هذا الفصل بالتحديد الذي هو مرثية لوطن يوشك على الضياع فها هي عائلة فلسطينية تقيم خارج البلاد تأتي الى الوطن في اجازة فتمتد الاقامة فيما يشبه لحظة وداع طويلة اخيرة، انها لحظة حاسمة في حياة الشعب الفلسطيني نراها من خلال عين الصبي الذي يعبر يوميا في طريقه للعب او للمدرسة العديد من الحواجز الامنية التي اقامها الانكليز للفصل مابين المناطق اليهودية والعربية في المدينة، ومع اشتداد الاضطرابات في فلسطين وصدور قرار التقسيم واقتراب نهاية فترة الانتداب، يرحل ادوارد سعيد مع والديه واخوته الى القاهرة في ديسمبر ١٩٤٧ ليلحق بهما بعد شهور قليلة العديد من افراد العائلة والعشرات من المعارف والاصدقاء الذين اجبروا على ترك ديارهم في القدس وصفد وحيفا، وتحولوا بين عشية وضحاها الى لاجئين بلا بيت او وطن وفي القلب من كل هؤلاء الاقارب والمعارف الذين وفدوا الى القاهرة عشية النكبة وفي اعقابها نجد العمة الثرية نبيهة شقيقة وديع سعيد والد ادوارد،، التي اقام هو واولاده في منزلها الانيق في القدس الغربية طيلة عام ١٩٤٧ يقول ادوارد سعيد عن عمته:

لم تكن عمتي نبيهة لتسمح لاحد منا بنسيان بؤس القضية الفلسطينية، كانت تأتي لتناول الغداء معنا كل يوم جمعة.. تحكي لنا بالتفصيل عن كل ماقامت به طيلة الاسبوع من زيارات لعائلات اللاجئين في شبرا، ومن تردد دائم على المكاتب الحكومية المصرية، حيث تقوم بمطاردة المسؤولين عن اصدار تصاريح العمل والاقامة لهؤلاء اللاجئين، كما كانت تحكي لنا عن مساعيها المستمرة مع جميع المنظمات الخيرية، بحثا عن اعانات مالية للمحتاجين.

ومع نهاية الفصل السادس ينتبه القارئ الى ان العالم البريء لادوارد الطفل قد اوشك على الاختفاء من المذكرات وباختفاء هذا العالم تختفي النبرة البروستية التي صاحبت العديد من مشاهد الطفولة الاولى كمشهد اخت الجدة التي تختلط ذكراها برائحة باسيتليا الليمون التي كانت تحتفظ بها لادوارد الصغير، او مشهد الطفل المختبئ خلف الجبلاية في حديقة الاسماك ليستزيد من صوت امه العذب وهي تبحث عنه ساعة غروب الشمس فها هو الطفل البريء يكبر امام اعيننا ليصبح مراهقا يتعرف على اسئلة الحياة الكبرى ويكثر من الشجار والنزاع حتى نجده في الفصل التاسع مرفوتا من كلية فكتوريا بالقاهرة فيقرر والده ارساله عام ١٩٥١ الى مدرسة داخلية في الولايات المتحدة.

ومثلما ودع ادوارد سعيد فلسطين قبل ضياعها بقليل فان مصر التي غادرها وهو على اعتاب السادسة عشرة ستشهد تغييرات عميقة تدفع به مرة اخرى خارج المكان يخبرنا ادوارد سعيد في مذكراته انه ظل يعود الى مصر لقضاء بعض اجازة الصيف مع اهله المقيمين بالقاهرة حتى عام ١٩٦٠، بل انه قضى عاما باكمله في القاهرة، برنستون بالولايات المتحدة يدير مع ابيه شركة ستاندار ستاشنري يقول ادوارد عن تجربته في ادارة اعمال والده:

كان حضور والدي الطاغي، سواء في مقر الشركة في شارع عبدالخالق ثروت، او في المكتب في شارع شريف يضاعف من شعوري العميق بأنني مجرد عابر سبيل في هذه الشركة، كان جميع الموظفين من اصغرهم لاكبرهم ينادونني (السيد ادوارد) ولكن هذا اللقب كان يبدو لي دوما سخيفا ومحرجا فلم يكن في مقدوري يوما ان اتحدث عن شركة ستاندرد ستاشنري بضمير الملكية، ولم يحدث ان اعطاني ابي طيلة عملي معه مهمة محددة اقوم بها بشكل منتظم، كان يريدني معه باعتباري ابنه، ولكن وعلى مدى السنة التي امضيتها في العمل معه كنت اقود سيارتي كل يوم في الثامنة صباحا لامضي يوما باكمله مابين المحل والمكتب بلا مهام محددة وكلما كنت اطالبه بتحديد مسؤولياتي كان يردد نفس العبارة: يكفي وجودك هنا..

كانت الفترة التي قضاها ادوارد سعيد يدير العمل مع والده في مصر فترة مليئة بالتحولات الكبيرة، وهي الفترة التي تلت اتساع دائرة قوانين الحراسة والتمصير والتي انتهت بالتأميمات الواسعة المعروفة باسم قوانين يوليو الاشتراكية، ولابد ان وديع سعيد الامريكي الجنسية (الذي كان يرفع العلم الامريكي على شركته في الاعياد والعطلات الرسمية كما يذكر ادوارد في مذكراته).. كان يستشعر خطرا كبيرا على ثروته فاراد ان يشترك ابنه الوحيد معه في حماية تلك الثروة ولكن هذه الشراكة ادت الى عواقب وخيمة يحدثنا ادوارد عنها فيقول:

ذات يوم، وبينما انا جالس في مكتب ابي اطالع مجلة ما، اذا به يحدثني بالتليفون من النادي ونادرا ماكان يفعل هذا ليقول: سوف ارسل لك بعض الاوراق.. عقد، اريدك ان توقع عليه وترسله الى دانيال مع الساعي.. وفسر لي سبب وجود اسمي على العقد كالتالي: انت ايضا في نهاية الامر شريك تنفيذي، لم يشغلني الامر على الاطلاق، الست هنا من اجله ومن اجل القيام بين الحين والاخر بمهمة نافعة له، وهكذا قمت بالتوقيع على العقد بعد ساعة من المكالمة ولم افكر في هذه المسألة بعد ذلك على الاطلاق، ولكن وبسبب هذا العقد حرمت من دخول مصر لمدة ١٥ سنة فقد كان هذا العقد مخالفا لقوانين تحويل العملة السائدة انذاك، وقد اخبرني ابي لاحقا ان قوة من الشرطة جاءت الى مكتبه بعد سفري للخارج تبحث عني وان احد الضباط هدد باحضاري من الخارج مكبلا في الحديد، وحتى برغم هذه الواقعة لم يساورني اي احساس بأن ابي كان على خطأ عندما خاطر باسم ابنه في عمل غير قانوني بل انني اعتقدت لفترة طويلة ان الشرطة المصرية هي التي اخطأت في حقي وان نشاطهم المحموم في تنفيذ الاوامر وليس لامبالاة ابي بما قد يحدث لي، هو الذي ادى الى حرماني لمدة ١٥ سنة من زيارة المدينة الوحيدة في العالم التي كنت احس بشكل او بآخر بعدم الغربة فيها.

بعد هذه الواقعة بفترة قليلة صفى والد ادوارد سعيد اعماله في القاهرة، ورحل هو وعائلته الى لبنان حيث انقطعت صلته بمصر حتى وفاته في منتصف السبعينيات، كما ان ادوارد سعيد نفسه لم يعد الى مصر الا لزيارة قصيرة عام ١٩٧٥، اعقبتها زيارة اخرى خاطفة في نهاية الثمانينيات وفي بداية التسعينيات اكتشف ادوارد سعيد انه مريض بسرطان الدم، وهو يحدثنا عن علاقة اكتشافه للمرض بكتابة المذكرات وبالعودة الى القاهرة في الفصل التاسع من الكتاب فيقول:

اجهشني ان اجد نفسي بعد مضي قرابة الشهر على تشخيص المرض الذي اعاني منه وانا في منتصف عملية كتابة خطاب الى امي التي كان قد انقضى على وفاتها عام ونصف فقد كان من عادتنا منذ ان تركت القاهرة عام ١٩٥١ ان نتراسل بشكل دوري وهكذا فان احتياجي العميق للتواصل معها جعلني انسى حقيقة موتها لوهلة قبل ان تفرض هذه الحقيقة نفسها مرة اخرى لتوقف عملية الكتابة وتتركني في حالة من الارتباك والضيق.

ثم يمضي ادوارد سعيد ليحدثنا كيف انه اخذ يستعيد في مواجهة المرض ذكرى مشاهد من حياته السابقة وكيف ان استعادة صورة هذا الماضي ملكت عليه وجدانه يقول ادوارد سعيد:

(وهكذا وجدتني اعود الى فلسطين عام ١٩٩٢ بعد ٤٥ سنة غيابا، بصحبة زوجتي واولادي واعود الى القاهرة بمفردي في يوليو ١٩٩٣ لازور ملاعب الصبا الاولى،، وعندما بدأت في تناول العلاج الكيماوي في مارس ١٩٩٤ اخذ يستقر في وعيي انه حتى وان لم تكن هذه هي (النهاية) فانها على الاقل بداية مرحلة جديدة (كحياة ادم وحواء اثر خروجهما من الجنة) لن استطيع بعدها العودة الى حياتي القديمة، وهكذا بدأت كتابة هذه المذكرات في شهر مايو ١٩٩٤..)

ويالها من مذكرات تمس شغاف القلب، كتبها ادوارد سعيد بلغة شاعرية شديدة العذوبة انها كتابة تبقى مع القارئ طويلا بعد الانتهاء من الكتاب كالرجع البعيد لموسيقى شجية، فللكتابة في هذه المذكرات مذاق حميم يخلقه ذلك الصدق الشديد الذي يتناول ادوارد سعيد به حياته الخاصة فانت تخرج من هذه المذكرات باحساس ان صديقا لك قد اطلعك على دقائق حياته، المبهج هنا والمحزن، بل والمخزي ايضا.

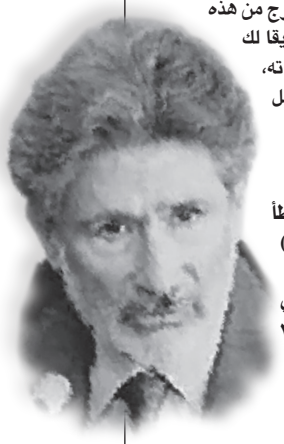

في المكان الخطأ
(مذكرات ادوارد سعيد)
تأليف: ادوارد سعيد
ترجمة: د. خالد غادري
٢٠٠٨

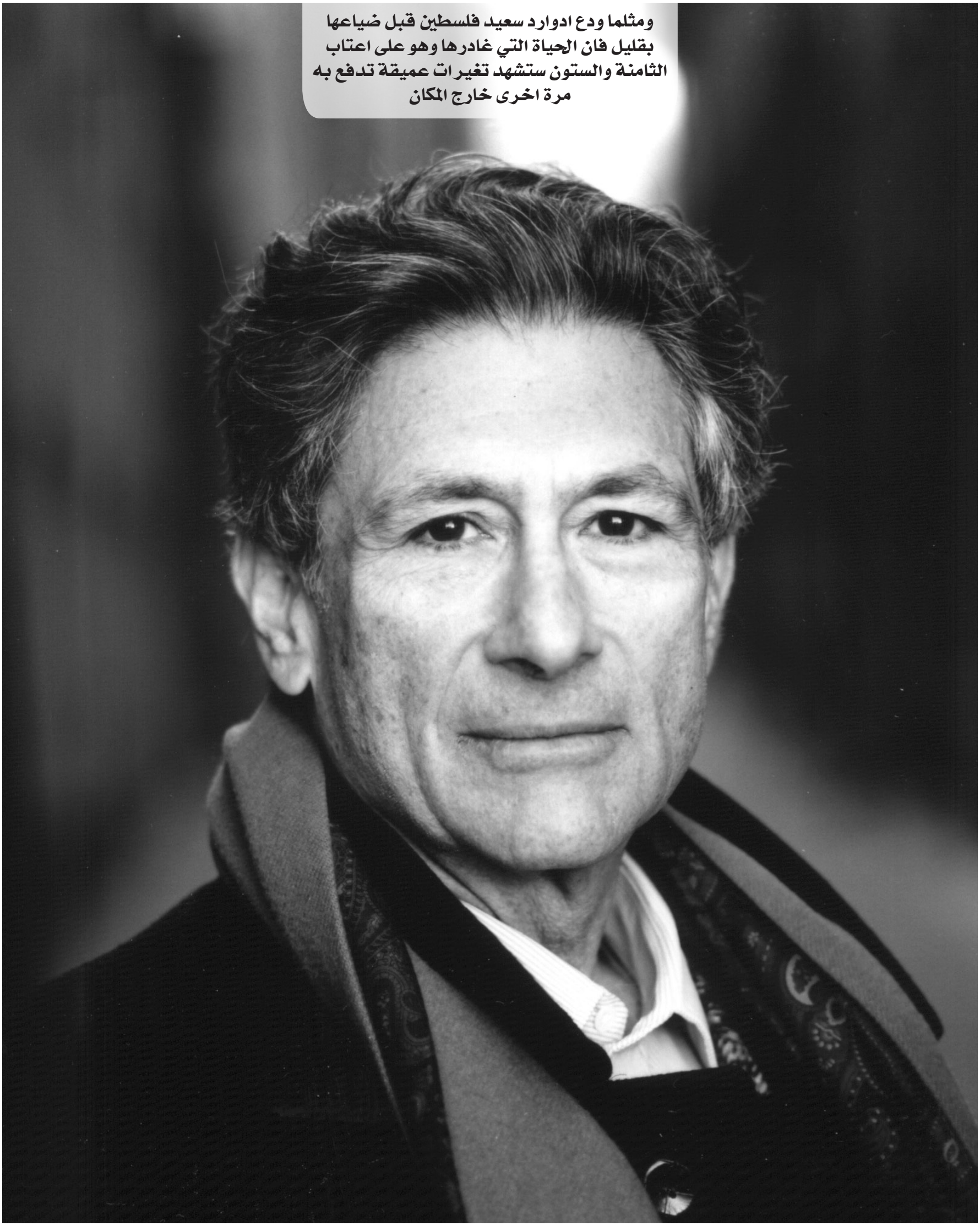

ومثلما ودع ادوارد سعيد فلسطين قبل ضياعها بقليل فان الحياة التي غادرها وهو على اعتاب الثامنة والستون ستشهد تغيرات عميقة تدفع به مرة اخرى خارج المكان

منارات

التحرير: علي حسين

التصميم: مصطفى محمد

الاشراف اللغوي: محمد السعدي